مصادر وخصائص الثقافة الإسلامية وأثرها في حياة الفرد والمجتمع

إعداد

الدكتور مبارك بن سيف الهاشمي

الأستاذ المشارك بكلية التربية- جامعة السلطان قابوس

سلطنة عمان مسقط

٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة مصادر وأصول الثقافة الإسلامية، وفهم خصائص القرآن الكريم وأثره في تكوين ثقافة الأمة، ومعرفة السنة النبوية كأحد مصادر الثقافة الإسلامية ودورها في الوعي الثقافي، والتعرف على منهج الرسول ﷺ في تجسيد الثقافة الإسلامية في حياة الأمة وتطبيقاتها، معرفة دور السنة النبوية في تأصيل وبناء الثقافة في العصر الحديث، وكذلك التعريف على الاجتهاد وأهميته في تأصيل الثقافة الإسلامية، وأثره على التجديد والإبداع، معرفة معالم الاجتهاد في الثقافة الإسلامية، ودوره في بناء الوعي الثقافي.

وتتناول هذه الدراسة التعريف بأهم الخصائص التي تتميز بها الثقافة الإسلامية، وتأكيد خاصية الربانية في الثقافة الإسلامية، وإدراك أثرها على النفس والحياة، والوقوف على معالم المرونة والثبات في الثقافة الإسلامية، وإدراك مظاهر الشمول والتوازن فيها، وإثبات سمة المثالية والواقعية والوقوف على صورها، والعلم بثمرات الإنسانية والعالمية، واكتساب ملكة الوعي بأهمية الثقافة الإسلامية في بناء الشخصية الإسلامية.

والكشف عن عجز الإنسان عن إنشاء نظام ثقافي يؤصل الثقافة ويكون مصدرا لها أو يمتلك بقدراته الذاتية أن يستوفي خصائص الثقافة.

مصادر الثقافة الإسلامية

إذا كان توضيح وبيان الشيء زيادة على تعريفه، فإن معرفة أصوله ومصادره وكشف سماته وخصائصه يزيد الأمر وضوحاً، والأشياء الحسية أو المعنوية في الذات أو الصفات تتميز عن بعضها وعن غيرها بالأصول والمصادر التي تعتمد وتنتمي إليها. وأصالة الثقافة الإسلامية وتميزها تتكشف من خلال الإطلاع على مصادرها وأصولها التي تقوم عليها، ومعرفة الآفاق والأبعاد والأهداف التي تتطلع إليها، وإن كان ظهور مصطلح الثقافة الإسلامية يعد حديثا إلا أن له جذورا وأصولا في الفكر الإسلامي، فأصول الثقافة الإسلامية وقاعدتها طبيعية لا اصطناعية، وذاتية لا مكتسبة، وموافقة لا مخالفة لفطرة الإنسان، كل ذلك لأن منبعها الوحي ومصدرها الإسلام فهي من العلوم والمعارف والنظم الإسلامية التي تحتل مركز الصدارة في حياة الأمة.

وقد تميزت الثقافة الإسلامية على غيرها من الثقافات بعدد من الخصائص فهي ثقافة عادلة؛ وعدلها مأخوذ ومنبثق من كونها ربانية في أساس مادتها، وهي ثقافة حرة لأنها تحرر الإنسان من العبودية لغير الله، ومن خصائصها أنها إنسانية، وعالمية، فهي ليست قومية ولا محلية، والتوازن والوسطية فيها في كل شيء لأن الإسلام وسط في كل أحواله.

ومن خلال معرفة مصادر وأصول الثقافة الإسلامية وبيان الخصائص والسمات لها يظهر التميز الفريد لهذه الثقافة وفيما يلي تعريف وبيان بمصادر الثقافة الإسلامية:

أولا: القرآن الكريم

هو كلامُ اللهِ تعالى ووَحْيُهُ المُنَزَّلُ باللسانِ العربي على خاتَمِ أنْبِيَائــهِ محمدٍ ﷺ المكتُوبُ في المُصْحَفِ، المَنْقُولُ إلينا بالتَّوَاتُرِ، المُتَعَبَّدُ بتِلاوتــهِ، المُتَحَدَّى بإعجَازِهِ.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٢- ١٩٥)

أنزله الله تعالى ليكون كتاب دعوة وتربية، وصراط هداية ومنهج حياة، وليكون نورا يضيء للإنسانية طريق حياتها، ويبصرها بما يضرها وما ينفعها، فهو يخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين، وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى الأهداف التي جاء بها، منها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ (النساء: ١٧٤/١٧٥)؛ ومنها قوله تعالى:﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٦/١٥). ومنها

قوله تعالى﴿ إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ (الإسراء: ٩)

وقال عنه رسول الله ﷺ : "كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهَزْل، من تركه من جبار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تَلْتَبِس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذْ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ [الجن: ١، ٢] ، من قال به صَدَق، ومن عمل به أجِر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم"[١]

والقرآن الكريم كل لا يتجزأ، وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة، بين بعضها والبعض ما يشبه الوحدة العضوية في أعضاء الجسم الواحد، فبعضها يؤثر في بعض. ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء، فالعقيدة تغذي العبادة، والعبادة تغذي الأخلاق، وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي والثقافي في حياة الفرد والمجتمع والأمة.

القرآن الكريم يخاطب العقل في كل عصر

ظل القرآن الكريم منذ نزوله على الأمة الإسلامية منارة شامخة تسطع على الدنيا لا يهزها تتابع أعاصير الأفكار والفلسفات ولا يرجها طغيان المعارف والثقافات المتنوعة، والقرآن الكريم

يواجه كل جيل بما يحل مشاكله ويروي ظمأه ويشفي علله، فكأنما أنزل على كل جيل إنزالا جديدا بقدر مقاييس عقله ومعايير فكره، وأطوار حياته ومطالب عصره حتى إنه ليخيل للناشئ في أي زمان وفي أي مكان أنه لم ينزل إلا ليشفي أمراض المجتمع الذي هو فيه، لأن الله جعله نبعا نورانيا يتدفق في كل دهر ويروي كل نفس، فالقرآن يصلنا بالغيب ويعكس لنا حقائق الوجود وينير لنا منهج الحياة. وتشير بداية سورة الفرقان إلى انطواء القرآن الكريم على عجائب الخلق في هذا الكون فقد جاء فيها: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا* وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا* قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الفرقان:٤- ٦) ففي هذا الرد على هذه المزاعم الباطلة والشبهات الواهية بأن هذا القرآن الذي يزعمون افتراءه منزل ممن يعلم السر في السموات والأرض دليل على انطوائه على عجائب السموات والأرض الدالة على عجز المخلوقين، ولو تضافرت جهودهم عن الإتيان بمثله وإنما هو تنزيل ممن يعلم أسرار الوجود ويحيط بدقائقه[٢].

القرآن الكريم يقدر الجانب العقلي والعاطفي من الإنسان

إذا كان قوة بلاغة البلغاء تتمثل في: تحويل المعاني الذهنية والانفعالات النفسية والمشاهد الغائبة إلى حقائق مرئية وأمور محسوسة، فإن القرآن الكريم هو كلام الخالق سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عنه خافية والذي يهب النفوس القدرة على التصور ويمنح

الألسنة موهبة التصوير لأجدر بأن يكون أعلى طبقة من كل بلاغات البلغاء، وأوفى دلالة، وأغزر معنى وأعمق أثرا وأسمى مقصدا وأرصن لفظا؛ لأنه صادر عن العليم بكل شيء، والقدير على كل شيء، ومن هنا كان القرآن الكريم يقدر في خطابه للإنسان الجانب العقلي والجانب العاطفي منه، وهذا مما يميزه عن سائر الكلام، ولا تكاد تجد في كلام الناس ما يجمع بين حاجة العقل ومتعة الوجدان في آن واحد. أما القرآن الكريم فبما أنه كلام الله المنزه عن الانفعالات والتأثيرات الموجه إلى الفطرة الإنسانية فهو يجمع في ثنايا عباراته بين ما يمتع الذوق ويرهف الحس، وبين ما يغذي العقل ويرضي الضمير سواء كان خطابه في الأمر والنهي أو في الوعد والوعيد أو في القصص والأمثال أو في الوعظ والتذكير، فلو نظرت مثلا إلى قول الحق سبحانه ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٥) لوجدت من الحقائق التي لا يكابر فيها إلا من كابر عقله، ولوجدت من جمال التعبير ودقة التصوير ما يمتع ذوقك ويحرك شعورك ويبعث الكامن في وجدانك، وانظر إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (المائدة: ٨) تجد ما يجمع لك بين حاجة عقلك ومتعة عاطفتك في هذه الكلمات القليلة ولو أن ألسنة الثقلين أديرت على كلام يجمع ما

بين هذا المعنى الغزير وما اقترن به من جمال التصوير ولطافة التعبير وسلاسة الأسلوب وسلامة التركيب لم يتأت ذلك أبدا إلا في هذه الحروف بعينها وبنفس هذا الترتيب، وقل مثل ذلك في مطلق الآيات بغير استثناء[٣].

القرآن الكريم يكون ثقافة الأمة

إذا كان من معاني الثقافة أنها مجموعة المعارف والجوانب الروحية الأصيلة من حياة الأمة ممثلة في تعاليمها الدينية وتقاليدها وأدبها وفنها وفلسفتها وأنظمة تفكيرها في الحياة والسلوك[٤] ؛ فقد جاء القرآن الكريم ليفتح عيني الإنسان على صفحات هذا الكون الواسع، ويأخذ بيده ليطوف به في معارض هذا الوجود. وكثيرا ما كان في ذلك يُبصر الإنسان بما لم تنفتح عليه عيناه من قبل من حقائق كونية شاء الله سبحانه وتعالى ألا تخرج للناس من طوايا الخفاء إلا بعد أزمنة متطاولة من نزول الكتاب؛ سواء أكانت هذه الحقائق في ذات الإنسان نفسه؛ أم في الأرض التي جعلها الله مهده ومرتعه؛ أم في سائر الأجرام التي ترتبط بها الأرض بسنة الجاذبية؛ أم في الفضاء السحيق الذي تسبح في خضمه الهائل هذه الأجرام دون أن يحدث أي صدام بينها أو خلل في سيرها.

واكتشاف الإنسان لهذه الحقائق إنما هو اكتشاف لنوع آخر من إعجاز القرآن الذي تحدث عنها قبل تصور الإنسان لها بأكثر من عشرة قرون، وبما أن القرآن هو خطاب الغيب الموجه إلى الدهر كله فهو لا يتصادم في أخباره مع عقلية أي عصر من عصور هذا الدهر،

فكل عصر يفهم من لغته بقدر اتساع آفاق علمه، وهذا من إعجاز بيانه، ولا يكاد التطور العلمي يتمخض عن حقيقة انطوى عليها سر الوجود إلا وتجد القرآن الكريم إما دالا عليها بوضوح عبارته أو موميا إليها بمجمل إشارته(٥).

وقد وعد الله سبحانه بتجلية هذه الحقائق للناس لتستبين لهم حجة القرآن الكريم الذي دل عليها أو أشار إليها وليعلموا أنه من عند الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (فصلت: ٥٢- ٥٤).

ويتجلى هذا في إشادة القرآن بالعقل، ودعوة الناس إلى إعماله تفكيراً فيما خلق الله تعالى وتأملاً فيما أبدع من خلق، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤). كما يتجلى أيضاً في إشادة القرآن الكريم بوسيلة العلم وأداته متمثلين في القراءة والكتابة بالقلم، قال الله تعالى:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١

-٥)، وقال جل شأنه: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (القلم: ١). ثم يتجلى حث القرآن على العلم، وكذلك تقديره وتكريمه لطائفة العلماء قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة: ١١) [٦]

والقرآن الكريم يهدف في كل ما اشتمل عليه من إشارات إلى أمرين:

الأول: حث الإنسان على التفكير السليم والنظر الصحيح إلى ما يزخر به عالم النفس وآفاق الكون من الآيات.

والثاني: ربط مختلف العلوم والمعارف التي يتوصل إليها الإنسان بالإيمان.

وقد أشار القرآن الكريم إلى حقائق تتعلق بعدد من فروع العلم وجزئيات المعرفة، إشارة تدل على اهتمام القرآن الكريم بكافة العلوم النظرية والتجريبية والمعارف الفكرية والعملية.. وإذا كان اهتمام القرآن بالعلوم النظرية أمراً لا يحتاج إلى تبيين، فالأمر على العكس من ذلك فيما يتعلق باهتمام القرآن بالعلوم التجريبية العملية، ومن ثم وجب علينا أن نلفت الأنظار إلى ما اشتمل عليه القرآن الكريم من إشارات إلى حقائق تتعلق بعدد من فروع العلم التجريبي.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر: ١٩)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩)، يشير القرآن إلى

حقيقة تتعلق بعلم الكيمياء، وهو ذلك الذي يقرر أن العناصر الداخلية في تركيب الأجسام من نسب معينة وموازين مقدرة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٨)؛ يشير القرآن إلى حقيقة تتعلق بعلم الأحياء أو ما يعرف بالتاريخ الطبيعي.. وذلك الذي يقرر إشتمال الحيوانات على الأجهزة العضوية الموجودة في الإنسان من مثل الجهاز العصبي والجهاز التنفسي. أما في قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: ٥)، فالقرآن يشير هنا إلى علم الميقات الذي هو فرع من علـــم الفلك، والذي تدور عليه مصالح الناس ومواقيتهم، وفي قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١) يشير القرآن إلى مبدأ هام من مبادئ علم الصحة الغذائي. وفي قولـــه تعـــالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ (المائدة: ٣) يشير القـــرآن إلى ما يسمى بالطب الوقـــائي. وفي قوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (النساء: ١١٠) يشير إلى مبدأ من مبادئ الطب النفسي(٧).

القرآن الكريم وتأصيل العلاقات والحوار بين الثقافات والشعوب

القرآن الكريم كتاب حوار مفتوح لا حدود لأبعاده وآفاقه، إذ تبادل هذا الحوار مع أصناف من خلق الله تعالى: مؤمنين ومشركين ومنافقين وأهل الكتاب وغيرهم، بدءاً من الملائكة والأنبياء عليهم السلام إلى إبليس لعنه الله، مبيناً أدواته المنهجية وكيفية إجرائه.

ومن صور الحوار في القرآن الكريم مع الملائكة:

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (سورة البقرة الآيات: ٣٠/٣٣).

ومن صور الحوار مع الأنبياء:

الحوار مع إبراهيم عليه السلام، حين سأل الله تعالى أن يريه كيفية إحياء الموتى، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

والحوار مع موسى عليه السلام، يقول ﷻ : ﴿ وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣-١٤٤).

من صور الحوار في القرآن الكريم مع إبليس:

يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف: ١١-١٨).

ويؤكد القرآن الكريم أنَّ الاختلاف بين البشر حقيقة فطرية، وقضاء إلهي أزلي مرتبط بالابتلاء والتكليف الذي تقوم عليه خلافة الإنسان في الأرض قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة:٤٨)، فالاختلاف والتعددية بين البشر قضية واقعية، وآلية تعامل الإنسان مع هذه القضية هي الحوار الذي يتم من خلاله توظيف الاختلاف وترشيده بحيث يقود أطرافه إلى فريضة التعارف ويجنبهم مخاطر جريمة الشقاق والتفرق. وقد دعانا إلى التعامل مع هذه الحقيقة من خلال الحوار.

وربما جاء الأسلوب الحواري في القرآن الكريم لتحقيق فائدة أخرى، هي الكشف عن عناد المعاند، ومعرفته للحق الذي يتظاهر بجهله، فان المناقشة والحوار تدفعه إلى كشف خفايا أمره وباطن ما في نفسه، ولا يتحقق هذا الغرض إلا بإثارة النظر في الأدلة واعتصارها عن طريق النقاش والحوار، انظر إلى هذه الآيات: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (النمل: ٥٩ ــ ٦٤).

إنه أسلوب حواري كما ترى، يقوم على إثارة الأسئلة المنبهة للعقل والمحركة للفكر، ولا تجد أي جواب صريح على سؤال منها، وإنما تجد بدلاً من الجواب لفت النظر إلى حيث يتسنى للفكر أن يدرك الجواب الصحيح ويتنبه له[٨].

وسلك رسول الله ﷺ المنهج القرآني في محاورة المشركين، ولاسيما مع أهل الكتاب، فقد أمره الله أن يخاطبهم خطاباً مميّزاً سمته العدل والمساواة والحسنى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)

ووصف القرآن الكريم حالة المشركين النفسية تجاه الرسول ﷺ حيث كان موقفهم انفعالياً، فجعلوا يردون بالتهم والتعجب ليريحوا أنفسهم من عناء التفكير بالاتكاء على تقليد الآباء : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ، وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلَاقٌ ﴾ (ص:٤-٧).

فحاورهم الرسول ﷺ بكل هدوء وطلب منهم إبداء الدليل على ما هم عليه من شرك: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف:٤)

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام:١٤٨).

وفي المدينة لما انتقل إليها رسول الله ﷺ ، كان له حوار ومعاهدات ومواثيق مع سكانها، والصحيفة وثيقة تاريخية، حفظتها كتب السيرة، لها مغاز ومعان سامية.

وكان للرسول ﷺ حوار مع اليهود الذين أقرّهم على دينهم وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم، كما كانت له معهم علاقات ودية، فقد اقترض من بعضهم، ولبّى دعوة للطعام عند أحدهم، ومات ودرعه مرهونة عند آخر منهم...

ثم شهد تاريخ الفكر الإسلامي فترات وأجواء مناسبة للتفكير الحواري الديني ومناخاً للحرية الفكرية لم يتكرر كثيرًا في التاريخ الإنساني، فقد شمل الحوار منذ انطلاقة الحضارة الإسلامية، بداية من النصف الثاني للقرن الأول الهجري مجالاً حيوياً يتمثل في حركة الترجمة ونقل التراث الإنساني، والخبرات البشرية إلى اللغة العربية، فكان سبيلا إلى التلاقح الفكري، والحوار الحضاري؛ فقد انكبّ المسلمون على نقل علوم أهل الحضارات العريقة التي جاورت بلادهم، وشجعوا المترجمين من شتى اللغات، وجلبوا الكتب من كل بقاع العالم التي وصلوا إليها[٩].

هكذا جاء دين الإسلام من خلال القرآن الكريم ومنهج السنة النبوية في الدعوة ليكون دين الحوار، ويطلق للفكر العنان في كل شئ، وليحاور الآخرين على الحجة والبرهان والدليل، وليعلم البشرية كيف يمكن الوصول إلى قناعاته وآفاقه بالكلمة الطيبة والأسلوب الجميل والموعظة الحسنة، وهكذا عرف المسلمون من خلال القرآن الكريم منهج الدعوة وأسلوب الحوار فخرجوا بهذا الدين إلى آفاق العالم في أجواء الحوار الذي يحترم الإنسان ويعترف بفكره ويقوده من خلال الحوار الفكري إلى مبادئ الإيمان التي يدعو إليها.

ثانيا: السنة النبوية الشريفة

إذا كان القرآن الكريم هو: الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام: عقائده وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وآدابه، فإن السنة النبوية الشريفة هي: البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله.

وكما يجب أن يطاع الرسول ﷺ فيما بلغه من آيات القرآن الكريم، كذلك يجب أن يطاع في سنته ﷺ التي تتمثل في: أقواله وأفعاله وتقريراته.

لذلك كانت السنة النبوية هي المصدر الثاني للثقافة العربية الإسلامية. وكما اعتمد المسلمون في نهضتهم الفكرية والعلمية والحضارية والثقافية على القرآن الكريم ودعوته، اعتمدوا كذلك

على سنة نبيهم ﷺ بعد أن جمعوها ودوّنوها وفصّلوا أبوابها، واستثمروها في مناهجهم العلمية وجهودهم العملية.

مفهوم السنة: ما صدر عن النبي ﷺ بعد بعثته من قول أو فعل أو تقرير مما قصد به التشريع، فهي المنهج النبوي المفصل في تعاليم الإسلام وتطبيقاته وتربية الأمة عليه، والذي يتجسد فيه قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (آل عمران: ١٦٤).

وتنقسم السنة إلى ثلاثة أقسام :

١- **سُنة قولية:** وهي الأحاديث التيّ قالها النبي ﷺ في المناسبات المختلفة والأغراض المتعددة، وتنقسم السنة القولية إلى أحاديث قدسية وأحاديث نبوية(١٠) .

مثال الحديث القدسي: عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:(يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ...) صحيح مسلم - (ج ١٢ / ص ٤٥٥).

ومثال الحديث النبوي القولي: هو أن يقول الصحابي أو غيره قال رسول الله ﷺ كذا...

٢- **سُنة فعلية:** وهي ما صدر عن النبي ﷺ من أفعال كالوضوء والصلاة ومناسك الحج وغيرها. مثاله: هو أن يقول الصحابي أو غيره فعل رسول الله ﷺ كذا...

٣- **سُنة تقريرية:** وهي سكوت النبي ﷺ عن إنكار فعل أو قول صدر في حضرته أو في غيبته وعلم به فأقره، مثاله: هو أن يقول الصحابي أو غيره حدث بحضرة رسول الله ﷺ كذا وكذا ولا يروى إنكاره ﷺ لذلك الفعل، كسكوته عن إنكار أكل الصحابة من الضب، حين رآهم يأكلونه، فإن ذلك يدل على جواز أكل لحم الضب ومن السنة التقريرية أيضا إقرار النبي ﷺ بعض النظم التي كان العرب عليها قبل الإسلام كإقراره عقود بعض الشركات كالمضاربة وغيرها.

وتنقسم السنة بحسب روايتها إلى قسمين:

١- **سُنة متواترة:** وهي ما رواها مجموعة من الرجال عن مثلهم في كل عصر حتى وصلت إلينا ممن يستحيل اتفاقهم على الكذب في العادة. وينقسم الحديث المتواتر إلى قسمين: **متواتر لفظي:** وهو أن يكون ما يرويه كل واحد متفق في اللفظ والمعنى مع ما يرويه الأخر؛ مثل حديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ " صحيح مسلم - (ج ١ / ص ١٢).

٢- **ومتواتر معنوي:** وهو أن يكون اللفظ المروي مختلفا، مع الإتحاد في المعنى؛ مثل حديث رفع اليدين عند الدعاء.

٣- **سُنة آحاد:** وهي التي تأتي في الحديث الذي رواه واحد من الصحابة أو أكثر عن النبيﷺ مما لم ينته إلى حد التواتر، وقد ينتهي إلى التواتر في الطبقة الثانية فما بعدها، وقد تنوعت سنة الآحاد باعتبار مقدار الثقة والعدالة وتمام الضبط في رواتها إلى أحاديث: صحيحة، وحسنة، وضعيفة[١١]، كما تنوعت باعتبارات أخرى إلى أحاديث: موصولة، ومقطوعة، ومرفوعة، ومرسلة، وموقوفة[١٢] ، إلى غير ذلك مما هو مقرر في علم مصطلح الحديث.

منزلة السُنة من القرآن:

السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون بياناً لما أجمل في القرآن وتفسيراً له.

الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن الكريم عن إيجابه، أو مُحَرِّمة لما سكت عن تحريمه.

إذن وظيفة السُنة هي البيان بكافة طرق البيان وأنواعه، فقد تأتي موافقة للقرآن الكريم، وتكون حينئذ واردة مورد التأكيد كما في قوله ﷺ: لا يحل مال أمرئ مسلم إلا بطيب من نفسه، فإنه موافق لقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ) (النساء : ٢٩).

وقد تأتي مبينة لمجمل الكتاب، كالأحاديث التي بينت كيفية الصلاة وأوقاتها وعدد الصلاة في كل يوم وعدد ركعات كل صلاة، وسائر ما يتعلق بتفاصيل الصلاة، والأحاديث التي بينت نصاب الزكاة في كل نوع من أنواعها، والمقدار الذي يؤخذ من كل نوع، فإن تلك الأحاديث قد بينت الإجمال الوارد في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٣).

وقد تأتي موضحة لما أشكل بيانه، كبيان النبي ﷺ الخيط الأبيض والخيط الأسود، في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة: ١٨٧) بأنه بياض النهار وسواد الليل.

وقد تأتي مخصصة للعام كتخصيصه عليه الصلاة والسلام الظلم الوارد في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٢) بأنه الشرك.

وقد تأتي مقيدة للمطلق؛ كتقييده عليه الصلاة والسلام اليد في قوله تعالى:﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨) باليمين.

وقد تأتي ناسخة لحكم ثبت بالكتاب كقوله ﷺ: لا وصية لوارث؛ فإنه ناسخ لوجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارد في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً

الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة : ١٨٠).

وقد تأتي مُثْبِتَةً لِحُكْم سكت عنه القرآن فلم يذكره صراحة، وذلك مثل الأحاديث الدالة على رجم الزاني المحصن، والشفعة وصدقة الفطر، والحد من الخمر، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وإعطاء الجدة السدس، وأنه يحرم بالرضاع ما يحرم بالنسب، وتحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير إلى غير ذلك من الأحكام(١٣).

السنة وبناء الوعي الثقافي للأمة

البناء الثقافي في حياة البشر يتركب من وجهين:

- **الوجه النظري**: ويتمثل في البناء التصوري، والمعرفي، والمفاهيم.

- **الوجه العملي**: ويتمثل في التطبيق العملي والتشكل الاجتماعي، والسلوك الفعلي للظاهرة الثقافية.

فدراسة أي ثقافة بشرية لابد أن تمر على المستويين السابقين: مستوى الإطار المرجعي، ومستوى الإطار السلوكي، ودراسة أي منهما بمعزل عن الآخر، تؤدي إلى تجزئة الظاهرة الثقافية، والفصل بين شقيها المتلازمين النظري والعملي.

ومعنى كون السنة النبوية مصدراً من مصادر الثقافة الإسلامية، أنها تدخل في بناء وتوجيه الجانبين معاً - النظري

والعملي- حتى ينسجما مع الخطاب الإلهي، وينضبطا مع القانون الفطري العام الذي جاءت الشريعة لتدل عليه، وتعلم بأنه صبغة الله التي يجب أن يعود إليها البشر في صناعة حياتهم، وتسخير سنن الله، من أجل تحقيق السعادة في الدارين.

ففهمُ السنة النبوية بهذه الشمولية، وإدراك قدرتها الفائقة على التوجيه في مختلف جوانب الحياة العلمية والعملية يؤدي إلى التعرف على الخير الإلهي الذي أودعه سبحانه وتعالي في جهد نبيه ﷺ، والتعرف على القدرة الذاتية للوعي النبوي المضمن في سنته ﷺ، التي تمثل الإطار العملي لمقاصد الشارع الحكيم في الخلق، والثقافة الإسلامية المعبرة عن حضارة الإسلام في الأرض.

لقد بدأت السنة تجربتها الأولى (مرحلة التأسيس) في حضور نبي الإسلام محمد ﷺ، لا لتترك أحاديث وعلما وبيانا في عقول الناس فحسب، ولكن لتخلف لنا أثراً عظيماً من آثار الإسلام، وهو تنزيل القرآن إلى أرض الواقع ، وتحويله إلى ثقافة اجتماعية أخلاقية وروحية، وسلوكية، وعمرانية. وقد تمت عملية التنزيل والتطبيق في ظرف زمني وجيز، حوالي ثلاثة وعشرين عاماً وهي حياة الرسول ﷺ بعد البعثة.

وتمتاز السنة النبوية في هذه المرحلة بأنها كانت سلوكاً، وقيماً، وأخلاقاً، وواقعاً مجسداً، وقرآنا يمشي داخل مؤسسات المجتمع وثقافته، محكومة بمرجعية الوحي.

ثم دخلت السنة مرحلتها الثانية (مرحلة الحفظ والتدوين) في وجود الصحابة الكرام، والتابعين الأبرار، وتابعي التابعين الأخيار، لتترك لنا ثروة علمية ومعرفية، ظهرت من خلالها عبقرية المسلم الاجتهادية، والعقلية، فنشأت بذلك علوم رائعة، ومناهج واسعة في الحقل المعرفي الإسلامي، وتميزت هذه المرحلة بأنها معرفية وعلمية، أي أنها اشتغلت بالجانب النظري، والاستدلالي، والبناء الفكري للسنة، وحفظت في كتب ومؤلفات مثل: الموطآت، والمسانيد، والصحاح، والمدونات، ونتج عن ذلك بعض العلوم التي تعتني بحفظ السنة مثل: علم مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل، وعلم العلل والرجال[١٤]، بالإضافة إلى استخدام مناهج التاريخ، ومناهج السير في الأرض.

وبالنظر إلى هاتين المرحلتين ينكشف ضرورة التلازم بين البناء الثقافي والحضاري، وبين السنة النبوية على جميع المستويات، بمعنى أنه لا يمكن الحديث عن البناء الثقافي والحضاري، وإحداث تغيير اجتماعي في حياة الناس؛ بمعزل عن السنة النبوية المطهرة، لأنها الأساس الذي لا يمكن أن تقوم بدونه عملية التغيير والتجديد، وسيبقى الحديث عن السنة النبوية نظرياً فقط ما لم تتحول السنة إلى قوة تحرك طاقات المجتمع، وتوجهها لممارسة عمليات البناء الحضاري، من أجل تحقيق مقاصد حددها المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم، ووضحتها السنة النبوية، في ثنايا توجيهاتها، وتطبيقاتها على أرض الواقع.

دور السنة في تأصيل الثقافة في العصر الحديث

إذا كانت تلك هي رسالة السنة النبوية المطهرة، فكيف تقوم بهذه الوظيفة في ظل العصر العالمي الحديث؟

فكرة العصر العالمي نعني بها مجمل التطورات العقلية، والمنهجية، والروحية، والسلوكية، التي أسهمت في نقل البشر من مرحلة تاريخية حضارية سابقة، إلى مرحلة حضارية جديدة، والتي فرضت على البشر الدخول إلى العصر العالمي، بكل ما فيه من تطور تكنولوجي، وثقافي، وبكل ما فيه من مشكلات على مستوى المفاهيم، والمناهج، والمعارف، والتي ستؤثرعلى مستقبل البشرية. وما سينجم عن ذلك من مواقف إنسانية، قد تضع البشر جميعاً في لحظة حرجة من تطورهم الذي لا يحتمل إلا وجهتين: إما سلامة البشرية من خلال تطبيق منهج الحق تبارك وتعالى، أو انهيارها وتماديها على طريق الغي، والظلم، الذي سيؤدي إلى الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

فإذا أريد للبناء الحضاري في العصر الحديث أن يتم من خلال المرجعية الإسلامية التي تعتمد على الوحي الإلهي – القرآن والسنة – فمن اللازم أن يتفاعل العقل المسلم مع هذا الإطار المرجعي، الذي بدونه تصبح عملية البناء الحضاري لا علاقة لها بالمجتمع المسلم والثقافة الإسلامية.

فعملية التعامل مع الوحي، تتم عن طريق السنة النبوية باعتبارها وحياً مبيناً للقرآن، وموضحاً له، وكاشفاً لأسراره،

وسننه، وخيراته، وأحكامه، وبدونها يتعذر التعامل الحقيقي، والصحيح مع القرآن الكريم.

هكذا أصّل القرآن الكريم والسنة النبوية الجوانب الثقافية في حياة الفرد والمجتمع والتي تتمثل في المظاهر السلوكية والأخلاقية، حيث جاء القرآن الكريم حاضا على مكارم الأخلاق وداعيا إليها فهو يدعو إلى الصدق والأمانة والوفاء والكرم والعفاف، والتواضع من غير ذل، والترفع من غير استكبار، وتجنب كل إساءات إلى الغير، سواء أكانت باللسان أم اليد أم إشارة العين، ومن الشواهد على ذلك:

والرسول ﷺ أجدر الناس بأن يتجسد فيه الخُلُق القرآني لأن الله تعالى اصطفاه من بين خَلْقه بإنزال القرآن عليه ليبلغه إلى الناس بلسانه وليترجمه بفعله، ومن ثم كان كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قولتها التاريخية الصادقة عندما سئلت عن خلقه ﷺ ، فَعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } مسند أحمد - (ج ٥٠ / ص ١١٦)

وأصول الثقافة الإسلامية في القرآن الكريم، وفي سنة الرسول ﷺ ليست نابتة من التراب وإنما هي نازلة من السماء، فلا تستخرج من بيئات الناس، فالبيئات كثيرا ما تتأثر وتتعفن وقد تستحسن بيئة ما تستقبحه أخرى، وأفكار الناس كثيرا ما تتأثر بطبع البيئة وما

يدور فيها، وإذا كان الإسلام قد أبقى بعض العادات التي كان عليها أهل الجاهلية فإن ذلك لا يعود إلى استحسان الجاهلية، وإنما يعود إلى استحسان الحسن بقطع النظر عمن يتلبس به من الناس، ومدار الثقافة في الإسلام على الطهارة فهو يدعو إلى طهارة الضمير وطهارة الفكر وطهارة الوجدان وطهارة اللسان وطهارة واقع الحياة ومن هنا نرى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحرص على طهارة المسلم في نفسه وطهارة صلته بالآخرين.

ثالثا: الاجتهادات الفقهية والعقلية

الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع التي تحمل الهداية الإلهية للبشر، وقد خصها الله بالعموم والخلود والشمول، فهي رحمة الله للعالمين، من كل الأجناس، وفي كل البيئات، وكل العصور، وفي كل مجالات الحياة المتنوعة، لهذا أودع الله فيها من الأصول والأحكام ما يجعلها قادرة على الوفاء بحاجات الإنسانية المتجددة على امتداد الزمان، واتساع المكان، وتطور الإنسان.

وإنما كانت كذلك بما جعل الله فيها من عوامل السعة والمرونة، وما شرع لعلمائها من حق الاجتهاد فيما ليس فيه دليل قطعي من الأحكام، أما ما كان فيه دليل ظني في ثبوته أو دلالته أو فيهما معا، أو ما ليس فيه نص ولا دليل، فهو المجال الرحب للاجتهاد، وبهذا تتسع الشريعة لمواجهة كل مستحدث، وتملك القدرة على توجيه كل تطور إلى ما هو أقوم، ومعالجة كل داء جديد بدواء من صيدلية الإسلام نفسه، لا بالتسول من الغرب أو الشرق.

إن الاجتهاد هو الذي يعطي الشريعة خصوبتها وثراءها، ويمكنها من قيادة زمام الحياة إلى ما يحب الله ويرضى، دون تفريط في حدود الله، ولا تضييع لحقوق الإنسان، وذلك إذا كان اجتهادا صحيحا مستوفيا لشروطه صادرا من أهله في محله[١٥].

ولاريب أن الذي يقود هذه القافلة هم الفقهاء وعلماء الأمة الذين يحملون على عاتقهم همّ الإسلام ومشروعه في كل عصر، والمثقف والمفكر العارف بشؤون دينه والبصير بحقائق الشرع، هو جزء من هذه القافلة التي تشارك في عملية الاجتهاد والتجديد والتطوير الحضاري.

وقد أدت سيادة روح الاجتهاد والتجديد وحرية البحث العلمي إلى ازدهار المجتمعات الإسلامية، وازدهار الثقافة الإسلامية في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية، التي امتد إشعاعها إلى جميع أنحاء العالم، من خلال ترجمة إنتاجات العلماء المسلمين إلى اللغة اللاتينية ومنها إلى مختلف اللغات الأوربية، مما كان له أكبر الأثر في النهضة العلمية الحديثة في أوروبا.

الاجتهاد معناه وأهميته وتأصيله للثقافة الإسلامية

الاجتهاد لغة: من مادة "جَهَدَ"، ومنه الجَهْد – بفتح الجيم- بمعنى المشقة، وقيل المبالغة والغاية، والجُهد – بضم الجيم- الطاقة، واجتهد أي جد، والاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود، والاجتهاد المبالغة في استفراغ الوسع، ولا يستعمل إلا فيما فيه كلفة

وجهد، فيقال: اجتهد في حمل حجر الرحا[١٦]، ولا يقال: اجتهد في حمل خردلة.

إذن فالاجتهاد لغة هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والمجهود والطاقة في تحصيل أمر ما؛ حسيا كان أو معنويا، والمقصود به هنا هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة الذهنية، فالجهد والاجتهاد المعنيُّ هنا هو المجهود العقلي، وقدح الذهن – فكريا– من أجل إيجاد أو ترجيح بديل من البدائل لمواجهة موقف أو حالة أو مشكلة من المشاكل على المستويين العملي والنظري[١٧].

وأما في اصطلاح الأصوليين، فقد عبروا عنه بعبارات متفاوتة، منها تعريف الغزالي له بأنه: "**بذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة**"، ومنها ما نقله الشوكاني في كتابه "إرشاد الفحول" بأنه: "**بذل الوسع في نيل حكم شرعي عملي بطريق الاستنباط**"[١٨]، وقال عنه نور الدين السالمي: بأنه "**طلب الفقيه حصول حكم حادثة بشرع ويبذل في ذلك مجهوده بحيث لا يمكنه المزيد عليه في الطلب**"[١٩].

والناظر في هذه التعريفات وغيرها الواردة عند الأصوليين والفقهاء سيجد أنها تنتهي في جملتها إلى أن:

١– الاجتهاد بذلُ أقصى الجهد الفكري بحيث لو كان تقصير في بذل هذا الجهد لم يعد اجتهاداً، فالقول في أحكام الله دون بذل غاية الجهد والطاقة في البحث عن الأدلة الشرعية وإمعان النظر فيها للوصول إلى الحكم لا يسمى اجتهادا.

٢- بذل الجهد من غير الفقيه أو من غير المتخصص لا يسمى اجتهادا بالمعنى الشرعي، فلا بد أن يكون الجهد المبذول واقعا من فقيه مجتهد جامع لشروط الاجتهاد وملكته في مجاله التخصصي أو الشرعي.

٣- هذا الجهد الفكري وقدح الذهن يكون بقصد استنباط الأحكام الظنية من المصادر التشريعية (الأدلة)، وبذلك تخرج عن نطاق مفهوم الاجتهاد الأحكام القطعية؛ كوجوب الصلاة؛ وحرمة الزنا، فالعلم بها من أدلتها القطعية في دلالتها وفي ثبوتها لا يسمى اجتهادا؛ لأنه مما هو معلوم من الدين بالضرورة[٢٠].

ومن هنا تظهر أهمية الاجتهاد، وأنه ضرورة شرعية ومكونا للثقافة الإسلامية لما له من دور واسع في تدبير مصالح الأمة، حيث إن المصادر النصية - القرآن والسنة - لم تنص حصراً على كل حادثة في الحياة؛ بل جاءت في صورة مبادئ كلية وأحكام عامة، فلم تتعرض للجزئيات والتفصيلات والكيفيات إلا فيما كان من شأنه الثبات والدوام حتى وإن تغير الزمان والمكان، كالعبادات والزواج والطلاق والمواريث ونحو ذلك، وفيما عدا هذا مما يختلف تطبيقه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد، كانت النصوص فيه -غالباً- عامة ومرنة، لئلا يُضيق الشارع على الناس إذا ألزمهم بصورة جزئية معينة قد تصلح لعصر دون عصر، أو لإقليم دون إقليم، أو لحال دون آخر، وهو ما كان من عوامل نشأة المذاهب الفقهية وثراء الاجتهاد الإسلامي عبر العصور.

من هنا تبدو حاجة الأمة الإسلامية في كل عصر إلى علماء مجتهدين لديهم نظر سديد وثقافة عصرية واسعة وتمكن في فقه الشريعة ومعرفة بمقاصدها، وخبرة بمواضع الحاجة في الأمة، ومقدرة على إمدادها بالمعالجة الشرعية لاستبقاء عظمتها، وعلى الأمة أن تقيم من بينها من هم أوسع علما وأصدق نظرا في فهم الشريعة، ويتعين أن يكونوا قد جمعوا إلى العلم العدالة وإتباع الشريعة والمعرفة بالزمان واستقامة الطريقة لتكون أمانة العلم فيهم مستوفاة، ولا تتطرق إليهم الريبة في النصح للأمة، وهو ما صار يتطلب الاجتهاد الجماعي لتعقد شئون الحياة المعاصرة وعلاقاتها الاقتصادية والسياسية.

مفهوم الاجتهاد المعاصر

انطلاقا مما طرأ على الواقع الإسلامي المعاصر من تغيير وتطور على سائر مناحي الحياة - الفكرية والاجتماعية والاقتصادية و السياسية و العلمية - ، واعتباراً بما يناط بالاجتهاد المعاصر من دور في الإسهام في توجيه نوازل العصر، ينبغي توسيع دائرة الاجتهاد المعاصر من قصره على المسائل الفقهية فقط إلى شموله لسائر المسائل - الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية - ، حتى لا ينتهي دور الاجتهاد عند حدود التعرف على الحكم الفقهي الثابت للمسائل المستجدة؛ بل ينبغي أن يصبح الاجتهاد المعاصر همًّا فكريا يستوعب كافة قضايا و مسائل الاجتماع الإنساني.

ولو نظرنا إلى الواقع الذي صور التعريفات السابقة، لأمكن إعطاء مفهوم جديد للاجتهاد المعاصر في ضوء الواقع الذي نعيش فيه، وهذا المفهوم يعرف الاجتهاد بأنه: **بذل الوسع العلمي المنهجي لتحقيق التفاعل المستمر بين الوحي الإلهي و العقل المسلم والواقع الإنساني**[٢١] .

وهذا التصور عن الاجتهاد المعاصر مبني على جملة من المبادئ تكشف حقيقته وغاياته وهي:

المبدأ الأول: الاجتهاد المعاصر ممارسة علمية منهجية، وهذا يتطلب استراتيجية جديدة في التحليل ومراعاة المنهجية في الاجتهاد المعاصر بعيدا عن الارتجالية أو التبرير حيث يكون وسع المجتهد المعاصر على درجة كبـيرة من التناسق و التناغم بين المقدمات التي ينطلق منها و المضامين التي يعالجها، مع مراعاة مراتب الاستدلال و درجات الأدلة التي تؤخذ منها الأحكام، مع حسن إدراك الواقع الذي يتفاعل مع أوامر الوحي و تعليماته، لذلك لا يُعتَد في عصرنا الراهن بأيِّ جهد لا يتوخى المنهجية والانضباط بأساسيات التفكير العلمي المنهجي.

المبدأ الثاني: تأهيل جيل من المجتهدين جامع بين العلوم الشرعية و معرفة بالعلوم الأخرى- التكنولوجية، الفلسفية، الاجتماعية، ...الخ وذلك حتى يتم وجود أرضية وفاق يمكن أن يقف عليها فقهاء النصوص الشرعية و فقهاء الواقع في الوقت نفسه، و ذلك لافتقار كليهما لمبادئ الآخر، وبذلك يكون الاجتهاد

المعاصر عملية تكامل و تحاور و تشاور بين علماء الشريعة- فقهاء النص- و متخصصين في المعارف العلمية الأخرى- فقهاء الواقع- من أجل التوصل إلى مراد الله تعالى.

المبدأ الثالث: غاية الاجتهاد المعاصر: إن الاجتهاد المعاصر بوصفه ممارسة علمية منهجية، و تفاعل منضبط بين الوحي الإلهي و عقل الإنسان المسلم و الواقع الإنساني، فلا بد من أن تكون له غايتان يهدف إلى تحقيقهما و هما:

١- التوصل إلى تحقيق الفهم لمراد الله تعالى: إن تحقيق هذا الفهم يقوم على علاقة بين النص و العقل لاستجلاء المعاني الكامنة في ثنايا النصوص، وإذا كانت الوقائع والأحداث قد تدخل طرفا في هذه العلاقة بين النص والعقل، فإنما تدخل على سبيل أن يستخدمها العقل عنصرا في فهم مدلول النص أو قرينة لاستجلاء الحكم الشرعي، و بناء على هذا فإن الأحكام الشرعية و تقريرها في العقل، سيكون محكوما في منهجه بأسس و قواعد تفرضها طبيعة النصوص في دلالتها على الأحكام، و طبيعة العلاقة بين تلك النصوص و العقل، ولكن إذا لم يكتسب المجتهد المعاصر قدرات الفهم العلمي المنهجي لقضايا الواقع؛ فلن يكون لديه ما يطرحه على نصوص الوحي أصلا، ولذلك كانت الغاية الثانية:

٢- فهم المتغيرات في الواقع الإنساني: فإذا أدرك المجتهد ما في الواقع من متغيرات يمكنه أن يتوصل إلى حسن تنزيل مراد الله على ذلك الواقع فتتحقق بذلك فاعلية الدين الإسلامي، وخضوع

الواقع الإنساني لتعاليمه، حيث يغدو الوحي متصلا بالواقع، ويمسي هذا الواقع متجاوبا مع أوامر الوحي وواقعا بالفعل، و هذا يتطلب فهما علميا و منهجيا للوحي و الواقع.

المبدأ الرابع عصرية الاجتهاد: مهمة الاجتهاد مطلقا تتركز حول إيجاد حلول إسلامية لمسائل و قضايا مستجدة ذات طابع عام، أو الترجيح بين مختلف الآراء القديمة والحديثة، والاجتهاد لكي يكون معاصرا يُفسح له المجال لتجديد فهم نصوص الوحي وتتاح مراجعة علمية دقيقة للاجتهادات و الفتاوى التي تبناها الفقهاء السابقون، وعليه أن يبدع في علوم العصر حتى يلحق بركب الأمم المتقدمة تكنولوجيا و اقتصاديا و ثقافيا؛ لا بالإستيراد منها[٢٢].

عوامل توظيف الاجتهاد في العصر الحديث

هناك عدة عوامل لو أخذ بها في توظيف الاجتهاد في العصر الحديث لجمعت بين معطياته الفقهية والعقلية، وأنتج كوادر علمية تجمع بين التفقه في الدين وفهم الواقع، ومن هذه العوامل:

•إعطاء العقل أقصى درجات الفاعلية باستفراغ الوسع وبذل ارفع مستويات الجهد الفكري والعلمي والبحثي في مجال دراسة الأفكار والمفاهيم والنظريات والأحكام، وبالشكل الذي يحقق قدراً من الاكتشاف والابتكار والتجديد. وهذا ما يدل عليه المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة الاجتهاد. فالاجتهاد لا ينطبق دلالة ومضموناً إلا بعد استكمال شرائط البحث وإعمال النظر بالطرائق والأدوات المنهجية.

•الدعم المستمر للبحث العلمي والمعرفي، فالاجتهاد هو دعوة نحو مضاعفة الجهد العلمي بلا انقطاع أو توقف وإنما يتحقق بتواصل علمي وتراكم معرفي. وهو صياغة ذهنية يتولد منها فعل الاجتهاد بصورة مستدامة لا تتهاون في تحصيل العلم والمعرفة، والتقدم ما هو إلا حصيلة تراكمات العلم واستخداماته في مجالات الحياة المختلفة، وقد جسد علماء المسلمين هذا النشاط الدؤوب في تعاملهم مع العلم والبحث العلمي في التعلم والتحصيل وفي الكتابة والتأليف وفي البحث والتحقيق، في ظل ظروف شاقة وصعبة تحملوا فيها التعب والسهر والمرض والفقر والسفر، لقد اخلصوا للعلم ونذروا أنفسهم له وانقطعوا إليه فكانوا قدوة في العلم.

•مقاومة عناصر الجمود والتفكير السطحي؛ فهذه الحالات هي من أشدّ ما يناقض ويعارض مفهوم الاجتهاد. وما ظهرت هذه الحالات وتفشّت إلا في زمن التراجع الحضاري الذي أصاب حركة الاجتهاد بالجمود والانغلاق والتوقف لحد ما.

•مواكبة تطورات الحياة ومتغيرات العصر وتحولات الزمن ومقتضيات التقدم وشرائط المستقبل. فالاجتهاد مجالاته القضايا والموضوعات الجديدة والمعاصرة. وفي نظر بعض الفقهاء المعاصرين لا معنى للاجتهاد بالانشغال بالقضايا والموضوعات التي ترتبط بالماضي وقد أشبعها السلف بحثاً ونظراً أو استقر عليها رأي السلف.

والمقولة التي اشتهرت في الأدبيات الإسلامية، بأن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، هذه المقولة الصادقة والبالغة الأهمية هي التي جاء الاجتهاد كمنهج علمي لتحقيقها. كما إنها المقولة التي تدافع عن فكرة المعاصرة التي تعني أن الشريعة لها من القدرة المعرفية والمنهجية ما يؤهلها لأن تطبق في كل عصر بحسب شروطه ومقتضياته، ووفق منهج الاجتهاد الذي يحمي الشريعة من أن تصاب بالجمود والتوقف(٢٣).

مقومات الاجتهاد في الثقافة الإسلامية

الاجتهاد الذي يبعث في الثقافة الإسلامية روح الحياة والتقدم والتجديد، ويدفع بالمسلم أن يرقى بإنسانيته وحياته في مجتمعه إلى مستوى الكمال الإنساني، ويحقق معنى الوسطية والشهادة على الحياة كما أراد الله تعالى لهذه الأمة، فقال ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة : ١٤٣). هذا الاجتهاد يجب أن يعتمد على مقومات من أهمها:

- الاعتماد على كتاب الله تعالى والعمل بشريعته والتخلق بأخلاقه، لأنه صالح لكل زمان ومكان ويلبي جميع المطالب الإنسانية، بدءاً من العقائد والقيم العليا وانتهاء بأصغر الآداب الاجتماعية والفردية، ويأخذ بالإنسان العادي إلى طريق الإنسان الكامل فيقوم بتهيئة جديدة لروحه وعقله، ويكشف له حقيقة نفسه ويجدد فيه ملكاته المعطلة ويتلقى منه منهج حياته، ويشعره

بمسئولياته تجاه الحياة التي يعيشها، ويأمره بالعدل والحق والمساواة مع الكائنات.

•الإقتداء برسول الله ﷺ في أخلاقه ومعاملاته وأفعاله، والاهتداء به رسولا ومعلماً ومرشداً، والتأسي به زوجاً، وأباً، وجداً، وصاحباً، والتخلق بصفاته الكريمة من رحمة وشفقة وحب وعدل وتسامح وصبر وعزة وفطنة وخشوع وتضرع وانكسار وافتقار إلى الله.

•الاهتمام بالعلم والثقافة الإسلامية فكريا وروحيا، وتطبيق ذلك سلوكيا، فالإسلام نظام إلهي يربط العلم بالعمل، فمن تعلم شيئا ولم ينتفع به ولم يصبح قدوة حسنة فيه، فقد ضيع نفسه والحق الذي اكتسبه، والعالم الذي يسعى في نشر العلم النافع والرافع فهو مع الأنبياء والأولياء يوم القيامة.

•الانفتاح على العالم، ونبذ التعصب والعنصرية، وبعث روح الإخاء والحب والتسامح، وإصلاح جانب الحوار مع الآخر بإشاعة السلام والأمن والطمأنينة بين بنى البشر، ونبذ التعالي والتفاضل على البشر مهما كان انتماؤهم أو لغتهم أو جنسهم، فكلكم لآدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

•وعي المجتهد بأهمية الثروة العلمية والتكنولوجية التي تخدم الإنسانية. وأن ترقية الأمة ورفع مستوى الشباب لإدراك مستوى عصرهم لا يتم إلا بالإلمام بالعلم والمعرفة واستخدام كافة الوسائل العصرية النافعة.

•ومن أهم مقومات التجديد في الفكر الإسلامي تحري الأدب والأخلاق الحميدة والاستقامة التي حددها الله تعالى في كتابه العظيم -سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي، والتخلق بأخلاق القرآن الكريم.

•الاهتمام بالجانب الروحي في الإنسان، لأن الإنسان عنصر روحي في قالب مادي، فإذا فقد جوهره الروحي صارت حياته فارغة من حقيقة الحياة، وصار قالبه خاليا من معنى الإنسانية، وفي الإنسان قوى معنوية وطاقات فعالة، فعلى المجتهدين السعي في التحري عن الأعماق الإنسانية وعن بناء الفكر والشخصية لدى الأجيال المقبلة، لأنه ليس من الممكن تحقيق أي نجاح على أيدي أناس فقراء في قيمهم الإنسانية، وعليهم تأهيل الشباب المسلم ليصبحوا مؤهلين لعلوم الغد ومهاراته، ويرقوهم إلى التطهر من لوثات العصر وخرافاته وشطحاته، ويفتحون المنافذ الصالحة لتربية الأجيال فيخرجوهم من وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداخلية وينظمونها بصورة طيعة لمتطلبات الحاضر فيصبحون أصحاب رسالة عليا، فترتقي بهم الأمة وتولد ولادة جديدة بأرواح أبنائها الذكية.

هذه أهم مقومات الاجتهاد التي تتطلبها الثقافة الإسلامية في عصرنا الحاضر وتلك هي الأمانة التي يجب أن يحملها العلماء ودعاة التجديد والإصلاح في عالمنا الإسلامي.

الاجتهاد والتجديد في الثقافة الإسلامية

الاجتهاد الفعال يولد تجديدا شاملا في حياة الثقافة الإسلامية، والتجديد هو الابن الشرعي لعملية الاجتهاد، والتجديد في اللغة هو ما يبعث في الذهن تصورًا تجتمع فيه ثلاثة معانٍ متصلة:

١. أن الشيء المجدد قد كان في أول الأمر موجودًا وقائمًا وللناس به عهد.

٢. أن هذا الشيء أتت عليه الأيام فأصابه البلى وصار قديمًا.

٣. أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى وينتهي.

ويعد حديث التجديد الذي جاء في السنة عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا) سنن أبي داود - (ج ١١ / ص ٣٦٢) من أهم الإشارات إلى مفهوم التجديد في السنة النبوية، وقد تعلقت بهذا الحديث مجموعة من الأفكار منها:

١. تجديد الدين :وهو في حقيقته تجديد وإحياء وإصلاح علاقة المسلمين بالدين والتفاعل مع أصوله والاهتداء بهديه؛ لتحقيق العمارة الحضارية والثقافة العلمية وتجديد حال المسلمين ولا يعني إطلاقا تبديلاً في الدين أو الشرع ذاته.

٢. زمن التجديد :اعتبر بعض الباحثين أن الإشارة الواردة في الحديث عن زمن التجديد على رأس كل مائة إنما هي دلالة على حقيقة استمرارية عملية التجديد، وتقارب زمانه بحيث يصبح عملية تواصل وتوريث.

٣. المجدِّد : اجتهد العلماء في توصيف وتحديد المجدد على رأس كل مائة سنة، لكن البعض يرى أن المجدد يقصد به الفرد أو الجماعة التي تحمل لواء التجديد في هذا العصر أو ذاك، ويجوز تفرقهم في البلاد، ويعرفهم ابن كثير بأنهم حملة العلم في كل عصر.

ويعد التجديد مفهومًا مناقضاً لمفهوم التقليد، ويقصد بالتقليد محاكاة الماضي بكل أشكاله وشكلياته، ولقد أدى التقليد إلى انفصال بين الوحي والعقل، وكأنهما متضادان لا يمكن الجمع بينهما، وبناءً على ذلك فإن عملية التجديد تعتبر ضرورة لإعادة ضبط العلاقة بين الوحي والعقل حتى لا تضطرب الأمور فيصير التجديد نابعًا من الخارج (التقليد الغربي) أو مرتدًا نحو الماضي لمحاولة إعادته (تقديس التراث).

مفهوم التجديد بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى.

مفهوم التجديد في الثقافة الغربية هو نتيجة ذلك الصراع الذي أحدثته الثورة أو النهضة العلمية بين الكنيسة من جانب وسلطة المعرفة والعلم والعقل من جانب آخر، مما دفع الأخيرة للاتجاه نحو تجاوز كل النظريات الدينية تحت مسمى التجديد.

ويرتكز مفهوم التجديد في الفكر الغربي على أساسين:

١. أن التجديد هو التكيف مع الأوضاع المعاصرة في إطار نسبية القيم وغياب العلاقة الواضحة بين الثابت والمتغير؛ إذ تعتبر كل قيمة قابلة للإصابة بالتبدل والتحول، وعلى الإنسان أن يستجيب لهذه التغيرات بما أسمته التكيف، ولم يطرح الفكر الغربي قواعد لعملية التجديد وحدوده وغاياته ومقاصده.

٢. يغلب على مفهوم التجديد في الفكر الغربي عملية التجاوز المستمرة للماضي أو حتى الواقع الراهن؛ من خلال مفهوم الثورة والذي يشير إلى التغيير الجذري والانقلاب في وضعية المجتمع.

وفكرة تجاوز الماضي مرتبطة بالثقافة الغربية التي تقوم على نفي وجود مصدر معرفي مستقل عن المصدر المعرفي البشري المبني على الواقع المشاهَد أو المحسوس المادي، ومقارنة بالفكر الغربي القائم على تجاوز الماضي وغياب المعايير الثابتة للتجديد، **فإن** مفهوم التجديد في الثقافة الإسلامية: يعني العودة إلى الأصول وإحياءها في حياة الإنسان المسلم؛ بما يمكن من إحياء ما اندرس، وتقويم ما انحرف، ومواجهة الحوادث والوقائع المتجددة، من خلال فهمها وإعادة قراءتها.

دور الاجتهاد في بناء الوعي الثقافي

الاجتهاد باعتباره أصلا من أصول الثقافة الإسلامية قد بث الوعي الثقافي في المثقف المسلم وحدد وظيفته في عملية البناء والتجديد في ميدان الثقافة الإسلامية باعتباره من الشخصيات الفاعلة في حياة الأمة، لأن المثقف المسلم الواعي جزء من الأمة الإسلامية، وينبغي أن يمارس دوره في عملية التجديد والتقدم، ومن أهم العناصر التي يجب أن تتوفر في المثقف المسلم المعاصر:

١. أن يعتني ببنائه الفكري المتكامل، والذي يتواصل مع ثوابت الأمة ومنجزات الحضارة الحديثة.

٢. أن يتوجه في إنتاجه وعطائه الثقافي والمعرفي، إلى القضايا الجوهرية والحيوية التي تحتاجها الأمة ومسيرة الإسلام المعاصرة.

٣. أن يعيد ترتيب علاقته بين أفكاره وتصوراته وبين الواقع الذي يعيشه، من أجل ردم الفجوة بين الواقع والأفكار والتصورات التي يؤمن بها. وأيضاً من أجل ضمان فعالية المثقف على المستويين الثقافي والاجتماعي، والتلازم بين الجانب العلمي النظري والجانب العملي التطبيقي، بمعنى التوافق بين التصور والتصديق، والتطابق بين النظرية والواقع.

والاجتهاد هو الذي يدفع عقل المثقف والمجتهد المسلم إلى تدبر الوحي، والتفكر في معانيه، والعمل بما جاء به، ويحثه على استعمال العقل في النظر في ملكوت السموات والأرض، ليدرك

أسرار الكون وحقائق الحياة، ويستعمل ذلك في عمارة الأرض والارتقاء بمستوى الحياة الكريمة، ويجعل للعقل حدودا وضوابط ينظر ويجتهد فيها، حتى لا يطلق لعقله العنان بغير هداية أو دراية فيقع في موارد الهلاك والضلال، متخذا إلهه هواه، ومن اتخذ إلهه هواه فقد ضل ضلالا مبينا.

وخصائص الاجتهاد وأثره على الثقافة الإسلامية ظاهرة وواضحة في كل الأنشطة العلمية والعمرانية لأنها انعكاس للفكر والروح الإسلامية، وحيثما نظرنا رأينا الصبغة الإسلامية في منجزات هذه الحضارة، ولا يمكن الفصل بين المعطيات الحضارية وبين الأمة التي صاغتها، أي بين خصائص هذه المعطيات وبين قيم ومبادئ واهتمامات وتصورات الجماعات المسلمة التي صنعتها فكراً وعلماً وفناً وأدباً واقتصاداً وإدارة وعمراناً، لأن الحضارات الكبيرة تعبر عن معطيات أمة بكاملها.

ومن الأمثلة على ذلك: العلوم الإنسانية والآداب والفنون التي تشكل مساحة واسعة في دائرة الثقافة، فإذا نظرنا إلى هذا الجانب رأينا المؤرخ وهو يبني معرفته على أسس إسلامية، ويقدم معطياته في إطار إسلامي، والجغرافي وهو يضرب في الأرض ملقياً رؤيته على الظواهر والخبرات والأشياء من منظور إسلامي، الفيلسوف والمنطقي وعالم الكلام وهو يجاهد لكي يحقق الوفاق بين معطيات الأقدمين وبين تصوره الإسلامي، والمربي وهو يسعى إلى صياغة وتوجيه السلوك الفردي وفق مطالب الإسلام وقيمه، والباحث

والأديب يستمد من العقيدة والشريعة الكثير من أغراضه ومضامينه، والفنان وهو يبني أو يرسم أو يشكل لا يتعارض مع مطالب الدين وتصوراته.

وهذا لا يمنع من الأخطاء الذاتية والموضوعية التي يقع فيها هذا المؤرخ أو ذلك الجغرافي، أو تحدث من هذا الفيلسوف أو ذاك الأديب أو يشذ فيها هذا الباحث أو ذاك الفنان، فهذه استثناءات للقاعدة الأوسع لا يؤخذ بها أو يقاس عليها.

وهذا الحضور للثقافة الإسلامية أعطى تغطية شاملة للحضارة لكل فروعها وتفاصيلها، فقدم الكشوف والخبرات والإبداعات، وصنف الكتب، وبنى وأنشأ المراكز والمعاهد والمدارس والجامعات والمؤسسات، وخرج الأساتذة والباحثين، واحتضن الطلبة والدارسين عبر العصور.

ومن خلال النظر في كتب التراجم يتبين العدد الكثير من أسماء العلماء والأعلام المعنيين بالعلوم والمعارف في كافة حقولها، بما لم تشهد له مثيلاً أمة من الأمم في التاريخ، وفي هذا دليل واضح على حجم التيار المعرفي والثقافي الذي صنعه المسلمون عبر التاريخ.

وكذلك من خلال النظر في افتتاحيات ومقدمات المصنفات في مختلف العلوم والآداب والفنون التي كتبها المسلمون، يتبين أنهم كيف كانوا يربطون تآليفهم ومنجزاتهم الإسلامية بنظرتهم للعالم وتصورهم للكون والحياة والظواهر والأشياء.. كانوا يبدؤون عملهم

باسم الله، وينتهون منه بحمد الله، حتى حين ينشطون في حقول الطبيعة والهندسة والحساب والجبر والكيمياء.. حتى وهم يتدارسون الفلسفة والهيئة والصناعة.. حتى وهم يبنون، ويرسمون، ويزخرفون، وينشدون. فإذا وجدوا أن الإسلام يحرم أصنافاً من الفنون، سعوا إلى بذل طاقاتهم الفنية باتجاهات أخرى لا تتنافى مع تعاليم وقيم الإسلام، فتجنبوا نحت المجسمات العارية، وتصوير الآلهة، وظهرت براعتهم الفنية في بناء المساجد البديعة والمدن الجميلة، والزخارف الباهرة، والخطوط الرائعة.. وما سمحوا لأنفسهم أن يحدثوا في وجدانهم وعقيدتهم الدينية ما يسرب إليها الازدواج والفساد.

خصائص الثقافة الإسلامية

تتميز الثقافة الإسلامية بخصائص لا تتوفر في سائر الثقافات فهي تنتسب إلى مصدرها الأساسي وهو الوحي الإلهي، فيقال بأنها ثقافة ربانية لأنها إلهية المصدر، وجميع فروع هذه الثقافة من العلوم والمعارف والأخلاق والسلوكيات تدور حول فلك الوحي المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما أجمع عليه المسلمون، وقد صح في الحديث عن أبي هريرة ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي) المستدرك على الصحيحين للحاكم - (ج ١ / ص ٣٠٧).

فلا يوجد شيء في الثقافة الإسلامية صحيح النقل عن مصدرها الأصلي - الكتاب والسنة - يخالف صريح العقل. ولا يسع العقل إذا تجرد من الأهواء والتعصب والاستكبار والعناد إلا الاعتراف بأحقية الثقافة الإسلامية وموافقتها للحق وسلامتها من الباطل، ولا يوجد في الثقافة الإسلامية ما يكون مستحيلا في العقل بل هي ترشد إلى ضرورة استعمال العقل، في النظر في ملكوت السموات والأرض، ليدرك أسرار الكون وحقائق الحياة، ويستعمل ذلك في عمارة الأرض بالخير، وعبادة الله تعالى.

ومن خصائص الثقافة الإسلامية أنها جاءت لكل العالمين من الجن والإنس إلى يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ : ٢٨) وقال ﷻ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء :

١٠٧) فهي شاملة لكل ما يحتاجه الناس للفوز بالسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وهي كذلك صالحة لهداية الناس في كل زمان ومكان وكل أمة وفي جميع الأحوال.

ومن أجل ذلك اختصت الثقافة الإسلامية بالثبات والواقعية والتوازن، فهي محفوظة بحفظ الله تعالى إلى قيام الساعة، وتجعل من يتمسك بها حسن السلوك، سامي الأخلاق، شريف المعاملة، كما قال الرسول الكريم ﷺ ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) السنن الكبرى للبيهقي - (ج ١٠ / ص ١٩٢). والثقافة الإسلامية تجمع بين مطالب الروح والجسد، والفرد والمجتمع ولا تغلب جانبا من هذه الجوانب على الآخر إلا بقدر من الدقة والتناسب والتوازن، ليحصل بذلك صلاح الروح، وسلامة الجسد، وفلاح الفرد، وإصلاح المجتمع.

وفيما يلي بيان بخصائص الثقافة الإسلامية التي شكلت شخصية العرب والمسلمين، وميَّزتهم من بين سائر العالمين الذين يفقدون هذه الخصائص والسمات من مكوناتهم الثقافية التي تشكل شخصيتهم:

١-الربانية (إلهية المصدر)

من أبرز خصائص الثقافة الإسلامية أنها ربانية المصدر، ويعني ذلك أن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه، منهج رباني خالص، لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ .

ولم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة أمة، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى والنور، والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده. كما قال الله تعالى في خطابه لأصحاب المنهج : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ (النساء : ١٧٤) وقال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٥٧).

وتبرز هذه الخاصية والسمة من خلال حقيقة الوحي الذي حدد الإطار العام للثقافة الإسلامية، وجعل منها ثقافة انتماء إلى عقيدة التوحيد، فالمسلم في عقيدته تلك يعتقد أن الله هو الذي خلق هذا الكون وسخر ما في هذا الوجود لمصلحة الإنسان، وهذا التصور من المسلم يجعله ينظر للحياة بمنظار يختلف فيه عن الآخرين، فهو يعلم أنه خليفة الله تعالى في هذه الأرض، وأن حياته فيها ليست هي الغاية من وجوده عليها، وإنما الغاية الأساسية هي الوصول إلى السعادة الأبدية في الدار الآخرة، وأن ذلك لا يتأتى إلا بسلوك طريق الاستقامة على الحق والصراط المستقيم الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، وعليه أن يسعى لاكتساب مرضاة الله تعالى في كل شان من شئون حياته، وينظر الإنسان في هذا الكون فيرى فيه قدرة الباري سبحانه وتعالى وعظمته وسلطانه فيسير في هذه الحياة على وفق السنن الربانية التي تسير نظام الكون والحياة.

خاصية الربانية للثقافة الإسلامية

صفة الربانية من خصوصية الثقافة الإسلامية، وبها تتميز عن الثقافات الأخرى التي ينشئها الفكر الإنساني من خلال تصوراته عن الكون والحياة والإنسان وعن العلاقات والروابط بين هذه الحقائق الكونية، وكذلك تتميز عن بقية المعتقدات الوثنية التي تنشأ عن الأوهام والخرافات والخيالات البشرية، فالثقافات غير الإسلامية في العالم اليوم تنطلق من ثلاثة أصول تشكل خصوصيتها وهي:

أولا: منهج أو نظام مدني بشري محض، صدر من تصورات عقلية وفلسفية بشرية، من فرد أو مجموعة كالشيوعية، والرأسمالية، والوجودية، وغيرها.

ثانيا: منهج أو نظام ديني من وضع بشري لا يعرف له أصل إلهي أو كتاب سماوي، مثل الديانة البوذية والهندوسية، والزرادشتية القائمة في الصين، واليابان، والهند.

ثالثا: منهج أو نظام ديني محرف، فهو وإن كان إلهيا في أصله لكن دخلت فيه أهواء البشر، واختلط فيه كلام الله بكلام البشر، وظهر فيه التحريف، وقد أضيف إلى أصوله الدينية تصورات وتأويلات وزيادات بدلت أصله الرباني، وبالتالي فقد صلته الإلهية مثل: اليهودية والنصرانية[٢٤].

إذن فالثقافة الإسلامية هي الثقافة الوحيدة من بين جميع الثقافات عند الأمم والحضارات بهذه الخاصية في أصلها الرباني

ومصدرها الإلهي، وبقيت أصولها محفوظة لم يلتبس فيها الحق بالباطل، لأن الله تعالى تولى حفظ كتابه، ودستوره الأساسي بنفسه، وهو القرآن المجيد، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

والقرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للثقافة الإسلامية- كما سبق بيانه- قد أشار إلى هذه الحقيقة وهي أن القرآن الكريم كله من عند الله تعالى هبة ورحمة منه ﷻ للإنسان، وأنه ليس فيه أية مشاركة أو تدخل من الإنسان حتى الرسول محمد ﷺ ليس له في هذا الأصل إلا التبليغ الصادق الأمين كما نزل من رب العالمين، قال الله ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (الشورى: ٥٢/٥٣).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (الحاقة: ٤٤ - ٤٧)

وهذا التأكيد على هذه الخاصية هو الذي يعطي القيمة الأساسية للثقافة الإسلامية، لأنها الموافقة للفطرة للإنسانية والملبية لجوانبها المحققة لحاجاتها، ولأن مصدرها مبرأ من النقص والجهل

والهوى، وهذه الخصائص هي المصاحبة دائما لكل تصور أو فكر بشري تنتمي إليه الثقافات الأخرى.

ولا تلغي هذه الخاصية – خاصية الربانية للثقافة الإسلامية – عمل العقل الإنساني، ولكن عليه أن يعتبر أن هذه الخاصية صفة عظيمة يجب إدراكها والعمل بها في كل ما حوله من القيم والسلوكيات الذهنية والتطبيقية دون الزيادة عليها أو النقص منها، وعلى العقلية الإسلامية حيال هذه الخاصية أن توجد المنهج الصحيح للعناية بها ورعايتها وبعثها إلى الواقع في كل ميدان وفي كل مجال من مجالات الحياة.

ومن جانب آخر ليس العقل وحده هو الذي يتلقى هذا التصور المنبثق من خاصية الربانية، وإنما هذا التصور الإلهي يخاطب ويلبي الكينونة الإنسانية وطبيعتها البشرية، ومن ثم فإن إدراكه لابد أن يكون محدوداً بما تحده به طبيعته، وفي حدود وظيفته التي خلق لأجلها، والخطاب الإلهي الموجه إليه منه ما يدخل في دائرة إدراكه وقدراته البشرية، ومنه ما لا تدركه قدرته العقلية المحكومة بحدود الزمان والمكان، ولكن لا يتعذر عليه التسليم بما جاء في هذا الخطاب لأنه داخل في قدراته العقلية، وذلك في الأشياء والمجالات التي هي أكبر من الطبيعة البشرية مثل ما يتصل بالحقيقة الإلهية، وما يتعلق بإرادة الله تعالى بالخلق. وكيفيته، وغير ذلك من المجالات الأزلية السرمدية المطلقة الخارجة عن حدود الزمان والمكان التي لا يمكن للعقل تجاوزها[٢٥] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الجوانب التي لم يزود الإنسان القدرة على الإحاطة بها وبماهيتها وكيفيتها، مثل إدراك حقيقة الذات الإلهية، فقال ﷻ : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام : ١٠٣)، وكذلك في مسألة الروح والساعة والغيب المحجوب عن البشر، لأن هذا فوق قدرة الكينونة البشرية، وخارج نطاق وظيفتها، ومن أراد من البشر إدراك ذلك خلط وتخبط ، لأنه قاسها على حدود فهمه وعقله.

وفيما عدا ذلك فقد طالبت الثقافة الإسلامية العقل البشري بالنظر والتأمل والتدبر والاعتبار في عالم الحياة لتحرره من قيود الوهم والخرافة، وتصونه من أن يبدد جهوده ويبذل طاقته في غير مجاله، ووجهته إلى النظر في سنن الله في الأنفس والآفاق وفي طبيعة الكون والحياة، ليتكون من ذلك منهجا يحقق به معنى الشهادة على الناس والأخذ بأسباب التمكين في الأرض.

الثقافة الإسلامية إلهية الاعتقادات والعبادات

معالم العقيدة والعبادة في الثقافة الإسلامية لها وظيفتها الكبرى في تشكيل شخصية المسلم الملتزم بهذه الثقافة علما وسلوكا فقها وتطبيقا، وذلك لكون هذه المعالم مصدرها الوحي الإلهي، فالعقائد والعبادات، والآداب والأخلاق، والشرائع والنظم، والأحكام كلها ربانية إلهية في أسسها الكلية، ومبادئها العامة، مستقاة من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من القرآن الكريم الذي أرسى دعائمها، ووضح معالمها، ومن صحيح السنة المبينة

للقرآن العظيم، فليس لأحد من أئمة الإسلام وفقهائه الكبار، أن يغير ويبدل في عقيدة الإسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير، كما حدث في الرسالات السابقة.

والعبادات الإسلامية فإن الوحي الإلهي هو الذي رسم صورها، وحدد أشكالها، وأركانها وشروطها، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان، ومكانها فيما يشترط فيه المكان، ولم يقبل من أحد من الناس مهما كان مجتهدا في الدين، ومهما بلغ في العلم والتقوى أن يبتكر صورا وهيئات من عنده للتقرب إلى الله تعالى، ومن فعل شيئا من ذلك فقد شرع في الدين ما لم يأذن به الله، وعُدَّ عمله بدعة وضلالة، ورُدَّ عليه عمله، كما يَرُدُّ الصيرفي النقاد العملة الزائفة.

والأخلاق الإسلامية مصدرها الوحي الإلهي فهو الذي وضع أصولها، وحدد قواعدها، لأنها تحدد معالم الشخصية الإسلامية، ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعني برسم المعالم الرئيسة لأدب المسلم، وخلق المسلم، من الإحسان بالوالدين، وخاصة إذا بلغا الكبر أو أحدهما، والإحسان بذوي القربى، ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، والخدم، والعناية بالفقراء والمساكين، وتحرير الرقاب، والصدق في القول، والإخلاص في العمل، وغض الأبصار وحفظ الفروج، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأداء

الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، والوفاء بالعهد وترك المنكرات، واجتناب الموبقات من الشرك، والسحر، والقتل، والزنى، والسكر، والربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه، إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية، الفردية والاجتماعية، التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

والتشريعات الإسلامية لضبط الحياة الفردية والأسرية، والاجتماعية والدولية، تشريعات ربانية: في أسسها، ومبادئها، وأحكامها الأساسية، التي أراد الله أن ينظم بها سير الحياة البشرية، ويقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد، وأعدل المبادئ، بعيدا عن قصور البشر، وأهواء النفس، وشطحات الفكر، وتجاوزات العقل[٢٦] ، وهذه السمة خاصية للتشريع الإسلامي على ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها، فهو التشريع الوحيد في العالم الذي أساسه وحي الله وكلماته المعصومة من الخطأ، المنزهة عن الظلم: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنعام : ١١٥)

أثر خاصية الربانية على النفس والحياة

وقد اكتسبت الثقافة الإسلامية من خاصية الربانية فوائد تعود على النفس البشرية والحياة، يجني الإنسان ثمارها في هذه الدنيا، فضلا عن ثمراتها في الآخرة منها[٢٧]:

أولا- معرفة غاية الوجود الإنساني:

إذا عرف الإنسان أن لوجوده غاية، ولمسيرته وجهة، وعرف أن لحياته رسالة وهدفاً، فإنه يدرك ويحس أن لحياته قيمة ومعنى، ولعيشه طعما ومذاقا، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة في الفضاء، ولا مخلوقا سائبا يتخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، كالذين جحدوا الله أو شكوا فيه، فلم يعرفوا: لماذا وجدوا؟ ولماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟ إنه لا يعيش في عماية، ولا يمشي إلى غير غاية، بل يسير على هدى من ربه، وبينة من أمره، واستبانة لمصيره، بعد أن عرف الله وأقر له بالوحدانية.

ثانيا- الاهتداء إلى الفطرة:

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها، أن يهتدي الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها، والتي تطلبُ الإيمان بالله تعالى، ولا يعوضها شيء غيره، يقول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم : ٣٠)، واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسبا رخيصا، بل نفع عظيم فيه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة، يسبح بحمد الله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (الإسراء : ٤٤)، وستظل

الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر، والجوع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

ثالثا- سلامة النفس من التمزق والصراع:

ومن ثمرات هذه الربانية سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات، ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلى أين تسير، ومع من تسير.

ولا يُشقي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته، وتباين اتجاهاته، وتضارب نزعاته، فهو حينا يشرِّق، وحينا يغرِّب، وتارة يتجه إلى اليمين، وطورا يتجه إلى اليسار، ومرة يرضى زيدا فيغضب عمرو، وأخرى يرضي عمرا فيغضب زيد، وهو في كلا الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك، ورضا الناس غاية لا تدرك، ولقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، وركز همومه في هم واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه ﷻ.

رابعا- التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

ومن ثمرات هذه الربانية: أنها ــ حين تستقر في أعماق النفس ــ تحرر الإنسان من العبودية لأنانيته، وشهوات نفسه، ولذات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية، فالمؤمن بالله وباليوم الآخر يقفه إيمانه موقف الموازنة

بين رغبات نفسه، ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهواته، وما يأمره به ربه، بين ما يمليه عليه الواجب، وما تشتهيه نفسه، بين لذة عاجلة في دنياه، وحساب عسير ينتظره في أخراه.

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية، أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها، لا بوحي بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية.

٢-الثبات والمرونة

الثبات والمرونة من أبرز السمات والخصائص في الثقافة الإسلامية، فهي تضع الأشياء في تناسق عجيب في مكانها المناسب، فالثبات فيما حقه البقاء والخلود، والمرونة فيما ينبغي أن يتطور ويتغير ويتجدد، وهذه الخاصية لا توجد في غيرها من الثقافات الأخرى.

وهذه الخاصية - خاصية الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت- هي طابع الصنعة الإلهية في الكون كله لأن "مادة" هذا الكون - سواء كانت هي الذرة أو الإشعاع أو أية صورة أخرى - ثابتة الماهية. ولكنها تتحرك فتتخذ أشكالاً دائمة التغير والتحور والتطور، وكل كوكب وكل نجم له مداره، يتحرك فيه حول محوره، حركة منتظمة، محكومة بنظام خاص.

وإنسانية هذا الإنسان ثابتة. ولكن هذا "الإنسان" يمر بأطوار شتى من النطفة إلى الشيخوخة، ويمر بأطوار اجتماعية شتى،

يرتقي فيها وينحط حسب اقترابه وابتعاده من مصدر إنسانيته. ولكن هذه الأطوار وتلك الأحوال لا تخرجه من حقيقة "إنسانيته" الثابتة، ولا من حدود نوازعها وطاقاتها واستعداداتها المنبثقة من تلك الحقيقة(٢٨).

وهكذا تبدو سمة: "الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت" سمة عميقة في الصنعة الإلهية كلها.ومن ثم فهي من سمات وخصائص الثقافة الإسلامية.

معالم الثبات والمرونة في الثقافة الإسلامية

الثبات على الأهداف والغايات والمرونة في الوسائل والأساليب.

الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات.

الثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشؤون الدنيوية والعلمية.

ويتجلى الثبات في "المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع" من كتاب الله، وسنة رسوله، فالقرآن هو الأصل والدستور، والسنة هي الشرح النظري والبيان العملي للقرآن، وكلاهما مصدر إلهي معصوم، لا يسع مسلما أن يعرض عنه: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٢) وتتجلى المرونة في "المصادر الاجتهادية" التي اختلف فقهاء الأمة في مدى

الاحتجاج بها، مثل: الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة، وشرع من قبلنا، وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد، وطرائق الاستنباط.

ويمثل الثبات في الثقافة الإسلامية: العقائد الأساسية؛ من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي التي ذكرها القرآن في غير موضع كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ (النساء : ١٣٦).

وفي الأركان العملية الخمسة؛ من الشهادتين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وهي التي صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الإسلام بني عليها.

وفي المحرمات اليقينية؛ من السحر، وقتل النفس، والزنى، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، والغصب، والسرقة، والغيبة والنميمة، وغيرها مما يثبت حرمته بقطعي القرآن والسنة.

وفي أمهات الفضائل؛ من الصدق، والأمانة، والعفة، والصبر، والوفاء بالعهد، والحياء، وغيرها من مكارم الأخلاق التي اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان.

وفي شرائع الإسلام القطعية في شؤون الزواج، والطلاق، والميراث والحدود، والقصاص، ونحوها من نظم الإسلام التي ثبتت

بنصوص قطعية الثبوت؛ قطعية الدلالة، فهذه الأمور ثابتة تزول الجبال ولا تزول.

أما في غير تلك الأحوال السابقة فإن الفقيه المسلم يجد نفسه في مرونة أمام منطقتين فسيحتين من مناطق الاجتهاد وإعمال الرأي والنظر.

المنطقة الأولى: منطقة الفراغ التشريعي:

تلك المنطقة التي تركتها النصوص ــ قصدا ــ لاجتهاد أولي الأمر والرأي، وأهل الحل والعقد في الأمة، بما يحقق المصلحة العامة، ويرعى المقاصد الشرعية، من غير أن يقيدنا الشارع فيها بأمر أو نهي. وهي المنطقة التي يسميها بعض الفقهاء "العفو" تبعا لما جاء في بعض الأحاديث:

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ - يَرْفَعُ الْحَدِيثَ - قَالَ « مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلاَلٌ وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا ». ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم : ٦٤) سنن الدارقطني - (ج ٥ / ص ٣٢١)

فالحدود التي قدرها الشرع لا يجوز تعديها، مثل: الفرائض التي أوجبها الله كالعبادات الأربع التي هي أركان الإسلام، وتحديد أنصبة الورثة في تركة الميت، وتحديد نصاب الزكاة ومقدار الواجب فيها، والحدود المقدرة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، وأداء الأمانات، والحكم بالعدل وغيرها.

وكذلك المحرمات اليقينية، مثل: الشرك، والسحر، والقتل، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات، والزنى، وشرب الخمر، والسرقة وشهادة الزور، ونحوها.

وما عدا هذه الحدود والفرائض والمحرمات، فهي أمور مسكوت عنها، متروكة للاجتهاد، رحمة بالأمة، وتيسيرا وتوسعة عليها، وبهذا تجد أمامها مجالا رحبا مرنا، تتحرك فيه بيسر وسهولة دون أن تشعر بالإثم في دينها، أو الحرج في دنياها.

أما كيف تملأ الأمة هذا "الفراغ التشريعي" أو "منطقة العفو" التي تركتها النصوص قصدا، فهناك طرائق ومسالك عديدة يختلف في تقديرها وفي الأخذ بها فقهاء الشريعة ما بين قابل ورافض، ومطلق ومقيد، ومقل ومكثر، فهناك القياس بقيوده وشروطه، وهناك الاستصلاح أو اعتبار المصلحة المرسلة، وهناك اعتبار العرف بقيوده وشروطه.

المنطقة الثانية: منطقة النصوص المحتملة (المتشابهات):

اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون هناك نصوص تحتمل وتتسع لأكثر من فهم، وأكثر من رأي، وفي هذا فسحة واسعة لمن أراد الموازنة والترجيح وأخذ أقرب الآراء إلى الصواب، وأولاها بتحقيق مقاصد الشرع، فقد يصلح رأي لزمن ولا يصلح لآخر، أو يصلح لبيئة ولا يصلح لأخرى، أو يصلح لحال ولا يصلح لغيره.

والذي يتدبر القرآن الكريم، يجد في نصوصه أدلة كثيرة على هذه الخاصية البارزة من خصائص الثقافة الإسلامية، وهي الجمع بين الثبات والمرونة جمعا متوازنا عادلا، ومن الأمثلة على ذلك:

أ- جاء الثبات في مثل قوله تعالى في وصف مجتمع المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى : ٣٨) وفي قوله لرسوله: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) فلا يجوز لحاكم، ولا لمجتمع، أن يلغي الشورى من حياته السياسية والاجتماعية، ولا يحل لأحد أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون، بالتسلط والجبروت.

وتأتي المرونة في عدم تحديد شكل معين للشورى، يلتزم به الناس في كل زمان وفي كل مكان، فيتضرر المجتمع بهذا التقييد الأبدي إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو الأعصار أو الأحوال، فيستطيع المؤمنون في كل عصر أن ينفذوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التي تناسب حالهم وأوضاعهم، وتلائم موقعهم من التطور، دون أي قيد يلزمهم بشكل جامد.

ب. جاء الثبات في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة : ٤٩) ، فأوجب التقيد بالعدل والالتزام بكل ما

أنزل الله، والحذر من إتباع الأهواء، وكل هذا مما لا مجال للتساهل فيه، وهو يمثل جانب الثبات قطعا في مجال الحكم والقضاء.

وتأتي المرونة في عدم الالتزام بشكل معين للقضاء والتقاضي، وهل يكون من درجة أو أكثر؟ وهل يسير على أسلوب القاضي المفرد أم على أسلوب المحكمة الجماعية؟ وهل يكون هناك محكمة جنايات وأخرى للمدنيات.. الخ، كل هذا متروك لاجتهاد أولي الأمر، وأهل الحل والعقد في مثل هذه الأمور، وليس للشارع قصد فيه إلا إقامة العدل، ورفع الظلم، وتحقيق المصلحة، ودرء المفسدة.

لقد اهتم الشارع بالنص على المبدأ والهدف، ولم ينص على الوسيلة والأسلوب، وذلك ليدع الفرصة، ويفسح الطريق للإنسان كي يختار لنفسه الأسلوب المناسب، والصورة الملائمة لزمنه وبيئته.

ولقد سار الفقه الإسلامي بمختلف مدارسه ومذاهبه، في نفس هذا الاتجاه ثابتا على الأصول والكليات، مرنا متطورا في الفروع والجزئيات، ولو شاء الله لجعل أحكام هذا الدين كلها منصوصا عليها نصا قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وبذلك لا يكون هناك مجال لاجتهاد أو استنباط، أو لاختلاف المشارب وتعدد المدارس، وتطور الآراء، وتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال، وإنما هو حكم واحد ثابت مؤبد، ومن هذا المنطلق تشكلت خصوصية الثبات والمرونة في الثقافة الإسلامية[٢٩].

وخاصية الثبات والمرونة هي التي تضمن للثقافة الإسلامية خاصية "الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت" فتضمن للفكر الإسلامي وللحياة الإسلامية مزية التناسق مع النظام الكوني العام، وتقيه شر الفساد الذي يصيب الكون كله لو اتبع أهواء البشر، بلا ضابط من قاعدة ثابتة.

والثقافة التي تتكون من تصورات متقلبة، ولا تستند إلى أصل ثابت، ومصدرها الفكر البشري الذي هو محدود المعرفة، وعلمه مهما بلغ قائم على الظن والشك والنظريات المتقلبة، ثم تتخذ من هذا العلم الظني، أو الهوى المتقلب مصدرا لها تتلقى منه التصورات والقيم والموازين، فإن هذه الثقافة معرضة للهزات العنيفة، وعدم الثبات والاستقرار، وتنشئ في عقل أتباعها الحيرة والقلق، وفي حياتهم التعب والفساد بما كسبت أيديهم.

فخاصية الثبات والمرونة في الثقافة الإسلامية: تثبيت الأصل الذي يقوم عليه شعور المسلم وتصوره، فتقوم عليه الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في استقرار وثبات، مع إطلاق الحرية للنمو الطبيعي في الأفكار والمشاعر، وفي الأنظمة والأوضاع، فلا تتجمد في قالب حديدي ولا تنفلت من كل ضابط انفلات القطيع الشارد.

٣- الشمول والتوازن

من خصائص الثقافة الإسلامية الشمول والتوازن، وهذه الخاصية ناشئة من طبيعة الخاصية الأولى وهي خاصية الربانية، فهي كونها من صنع الله لا من صنع الإنسان فيطبعها بطابع

الصنعة الإلهية وهي: الشمول والتوازن، قال الله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٧-٩)

فالثقافة الإسلامية تأخذ من الإسلام شموله وسعته وتوازنه ووسطيته، فالإنسان محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان سواء كان فرداً أو جيلاً أو جنساً، فهو لا يوجد إلا في مكان وزمان، وهو محدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة والإدراك فلا يكتسب من العلم إلا ما يتناسب مع حدود كينونته في الزمان والمكان، وفوق ذلك هو محكوم بضعفه وميله وشهوته ورغبته، ومحكوم بقصوره وجهله. فإذا فكر الإنسان وهو في هذه الظروف في إنشاء تصور اعتقادي من ذاته، أو في إنشاء منهج للحياة الواقعية فسوف يأتي تفكيره محكوماً بهذه السمة التي تحكم كينونته كلها فيأتي تفكيره ناقصا؛ يصلح لزمان ولا يصلح لآخر، ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر، ويصلح لحال ولا يصلح لآخر، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر، وفوق ذلك فهو لا يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه، وجميع ملابساته وأطواره، وجميع مقوماته وأسبابه، بالإضافة إلى ما يعتري تفكير الإنسان من عوامل الضعف والهوى.

فلا يمكن أن تأتي فكرة بشرية تتسم بالكمال، أو منهج من صنع البشر يتمثل فيه الشمول، ودائما تتسم الأفكار التي استقل البشر بصنعها، والمناهج التي استقل البشر بوضعها بالتناقض والجدل، أما حين يتولى الله تعالى ذلك كله .. فإن التصور

الاعتقادي، والمنهج المنبثق عنه، يأتيان بريئين من كل ما يعتري الصنعة البشرية من القصور والنقص والضعف والتفاوت، ولهذا كان الشمول والتوازن خاصيتين من خواص الثقافة الإسلامية، فهي تصور شامل، وهي شمول متوازن.

(وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك، هذه الآفات التي لم يسلم منها أي تصور آخر. سواء التصورات الفلسفية، أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية، بما أضافته إليها، أو نقصته منها، أو أولته تأويلاً خاطئاً، وأضافت هذا التأويل الخاطئ إلى صلب العقيدة) (٣٠).

وتتجلى خاصية الشمول في رد كل شيء في هذا الكون إلى الله، وشمول إرادته وتدبيره وهيمنته وسلطانه لكل شيء؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر : ٤٩).

وفي خاصية الشمول والتوازن تجد الفطرة البشرية في الثقافة الإسلامية ما يلبي حاجتها: من معلوم ومجهول، ومن غيب لا تحيط به الأفهام ولا تراه الأبصار، ومكشوف تجول فيه العقول وتتدبره القلوب، ومن مجال أوسع من إدراكها تستشعر إزاءه جلال الخالق الكبير، ومجال يعمل فيه إدراكها وتستشعر إزاءه قيمة الإنسان في الكون وكرامته في الوجود.

وتثبت الثقافة الإسلامية طلاقة المشيئة الإلهية وفاعليتها، وفي الوقت ذاته تثبت المشيئة الإنسانية، وتجعل للإنسان الدور الأول في

عمارة الأرض وتعطيه مركزاً ممتازاً في نظام الكون، وتمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير. ولكن كل ذلك في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية، وتفردها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة، باعتبار أن النشاط الإنساني هو أحد هذه الأسباب الظاهرة، وأن وجود الإنسان وإرادته وحركته ونشاطه، داخل في نطاق المشيئة المطلقة لله تعالى المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه.

وهناك توازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية، وليست هنالك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الإلهية، حين تريد أن تفعل ما تريد، قال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل : ٤٠).

وكذلك التوازن بين مجال المشيئة الإلهية المطلقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة.. وهي القضية المشهورة في تاريخ الجدل في العالم كله، وفي المعتقدات كلها، وفي الفلسفات والوثنيات كذلك باسم قضية "القضاء والقدر" أو الجبر والاختيار.

ويقرأ الإنسان في القرآن الكريم: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد : ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة : ٥١)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ

وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَالِ هَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ (النساء : ٧٨).

ويقرأ كذلك في الجانب الآخر قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١)، وقوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال :٥٣)، ثم يقرأ بعد هذا وذلك: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر: ٥٤-٥٦)، وقوله سبحانه وتعالى (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) (الإنسان: ٢٩-٣٠).

يقرأ الإنسان في الثقافة الإسلامية أمثال هذه المجموعات المنوعة من الآيات القرآنية الكريمة، فيدرك منها سعة مفهوم "القدر" في الإسلام، والمجال الذي تعمل فيه المشيئة الإنسانية في حدود قدر الله المحيط بالوجود.

فيوحي إليه هذا التوازن أن قدر الله هو الذي ينشئ ويخلق كل ما ينشأ وما يُخلق من الأحداث والأشياء والأحياء، وهو الذي يصرّف حياة الناس ويكيّفها، شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله، كل شيء فيه مخلوق بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر، ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم، وما يحدثون فيها من تغييرات قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا

بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١). وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة، لا يبطل هذا ولا يعطله، وتتوازن الكينونة الإنسانية بهذا وذاك، وهي بقدر ما تؤمن بالمجهول تتدبر بالمعلوم، وحين تناولت الفلسفات والثقافات الوضعية البشرية هذه القضية لم تعد إلا بالحيرة والتخبط، أما الثقافة الإسلامية فليس فيها ذلك الخلط والتعقيد حين تواجه هذه القضية بمفهوم التوازن والشمول.

عجز الإنسان عن إنشاء نظام شامل ومتوازن

الإنسان بعقله المحدود، وعلمه القاصر، فضلا عن تأثير ميوله ونزعاته الشخصية والأسرية والعنصرية وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر، يعجز عن إنشاء منهج أو نظام شامل ومتوازن، ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر ــ فرد أو جماعة ــ من الإفراط أو التفريط، كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ.

إن القادر على إعطاء كل شيء في الوجود ــ ماديا كان أو معنويا ــ حقه بحساب وميزان، هو الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، وأحاط بكل شيء خبرا، وأحصى كل شيء عددا، ووسع كل شيء رحمة وعلما.

من مظاهر الشمول و التوازن في الثقافة الإسلامية

تتجلى مظاهر التوازن والاعتدال واضحة في كل جوانب الثقافة الإسلامية، نظرية وعملية، تربوية وتشريعية.

فمظاهر العبادة متوازنة بين مطالب الدين ومنافع الحياة، وأوضح دليل على هذا الآيات الآمرة بصلاة الجمعة، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: ٩-١٠).

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وترك للبيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة، ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيرا في كل حال، فهو أساس الفلاح والنجاح[٣١].

ومظاهر الأخلاق والسلوك في الثقافة الإسلامية متوازنة بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان مثاليا، فوضعوا له من القيم والآداب فوق طاقته، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيوانا أو كالحيوان، فوضعوا له من السلوك ما لا يليق به فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيرا محضا، وهؤلاء أساءوا بها الظن، فعدوها شرا خالصا، وكانت نظرة الإسلام وسطا بين أولئك وهؤلاء.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل، وفيه الشهوة، وقد هُدى للنجدين، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين، إما

شاكرا وإما كفورا. فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى. ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس:٧ - ١٠).

وكذلك تتجلى مظاهر التوازن والشمول في مجال الفردية والجماعية. في الثقافة الإسلامية تلتقي الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات، في حين تخبطت الثقافات والفلسفات الأخرى في قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما: هل الفرد هو الأصل والمجتمع طارئ مفروض عليه، لأن المجتمع إنما يتكون من الأفراد؟ أم المجتمع هو الأساس والفرد نافلة، لأن الفرد بدون المجتمع مادة (خام)، والمجتمع هو الذي يشكلها ويعطيها صورتها، فالمجتمع هو الذي يورث الفرد ثقافته وآدابه وعاداته وغير ذلك؟

من الناس من جنح إلى هذا، ومنهم من مال إلى ذلك، واحتد الخلاف بين الفلاسفة والمشرعين والاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين في هذه القضية، فلم يصلوا إلى نتيجة. كان "أرسطو" يؤمن بفردية الإنسان، ويحبذ النظام الذي يقوم على الفردية، وكان أستاذه "أفلاطون" يؤمن بالجماعية ــ الاشتراكية ــ كما يتضح ذلك في كتابه "الجمهورية"، وبهذا لم تستطع الفلسفة الإغريقية ــ أشهر الفلسفات البشرية القديمة ــ أن تحل هذه العقدة، وأن تخرج الناس من هذه الحيرة.

وفي فارس ظهر مذهبان متناقضان: أحدهما فردي ويدعو إلى التقشف والزهد، والامتناع عن الزواج، ليعجل الإنسان بفناء العالم، الذي يعج بالشرور والآلام، وهذا هو مذهب "ماني" ويمثل أقصى الفردية.

وقام في مقابله مذهب آخر يمثل أقصى "الجماعية" هو مذهب "مزدك" الذي دعا إلى شيوعية الأموال والنساء، وتبعه كثير من الغوغاء، الذين عاثوا في الأرض فسادا، وضجت منهم البلاد والعباد.

وقد جاءت الأديان السماوية لتقيم التوازن في الحياة، والقسط بين الناس، كما قرر ذلك القرآن الكريم، ولكن الكثير من أتباعها سرعان ما حرفوها وبدلوا كلمات الله، ففقدت بذلك وظيفتها في الحياة، حين فقدت ميزتها الأولى وهي: ربانية المصدر، قال الله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (الحديد : ٢٧).

وإذا طوينا كتاب التاريخ وتأملنا صفحات الواقع، فماذا نرى؟

إن عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي، والمذهب الجماعي، فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية، واعتبار الفرد هو المحور الأساسي، وتعطيه مطلق الحقوق بدعوى "الحرية الشخصية" دون ضابط يحكمها أو يحميه، فله حرية التملك، حرية القول، وحرية التصرف، وحرية التمتع، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه، وإضرار غيره، مادام يستعمل حقه في "الحرية

الشخصية"، فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا، وينفقه في اللهو والخمر والفجور، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين، ولا سلطان لأحد عليه، لأنه "حر".

والمذاهب الاشتراكية ــ وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية ــ تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حقوقه، والإكثار من واجباته، واعتبار المجتمع هو الغاية، وهو الأصل. وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك "الآلة" الجبارة التي هي المجتمع، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة، والفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة، والمنقولات، وليس له حق المعارضة، وإذا حدثته نفسه بالنقد العلني أو الخفي، فإن السجون والمنافي وحبال المشانق له بالمرصاد.

ذلك هو شأن فلسفات البشر، وثقافات البشر، وموقفها من الفردية والجماعية، فماذا كان موقف الإسلام الذي رسم منهج الثقافة الإسلامية؟ لقد كان موقفه فريدا حقا، ولم يتطرف إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فالإنسان من خلق الله تعالى، ومن المحال أن يشرع الخالق من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان أو يصادمها، وقد خلقه الله تعالى على طبيعة مزدوجة: فردية واجتماعية في آن واحد، فالفردية جزء أصيل في كيانه، ولهذا يحب ذاته، ويميل إلى إثباتها وإبرازها ويرغب في الاستقلال بشؤونه الخاصة.

وخلق فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره، ولهذا عد السجن الانفرادي عقوبة قاسية للإنسان، ولو كان يتمتع داخله بما لذ وطاب من الطعام والشراب[٣٢].

والنظام الصالح هو الذي يراعى هذين الجانبين: الفردية والجماعية، ولا يطغى أحدهما على الآخر. فلا عجب أن جاء الإسلام ــ وهو دين الفطرة ــ نظاما وسطا عدلا، لا يجور على الفرد على حساب المجتمع، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد، لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه، وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه، دون حرج ولا عنت، ويقرر له من الحقوق ما يكافئ واجباته، ويلبي حاجته، ويحفظ كرامته، ويصون إنسانيته[٣٣].

والغاية العليا للإسلام هي إيجاد التوازن في نفس الفرد فيؤدي ذلك إلى إيجاد التوازن في المجتمع، وفي الإنسانية كلها بعد ذلك بقدر ما يكون هذا في حدود الإمكان، ووسيلته في ذلك أن يمسك بالإنسان من خيط الصعود ليساعده على موازنة الثقل الذي يجذبه إلى الأرض، ولكنه لا يعنف في جذبه إلى أعلى حتى يمزق أوصاله، أو يقطع ما بينه وبين الأرض من صلات، لأنه حين ذلك يفقده التوازن المنشود.

هكذا أقام الإسلام التوازن والشمول بين الفرد والمجتمع، أو بين الفردية والجماعية في حياة الإنسان، كما نتبين أن نظام الإسلام لا يعد في المذاهب الفردية، كما لا يحسب في المذاهب الجماعية،

ذلك لأنه أخذ من كل منهما خير ما فيه، كما تنزه عن شر ما فيه، فقد اعترف بالفرد وبالمجتمع، وقرر لكل منهما حقوقه بالعدل، وألزمه واجبات تقابلها بالمعروف. وهذه هي الوسطية، وإن شئت قلت: هو التوازن الذي اختصت به الثقافة الإسلامية.

ومن مظاهر الشمول والتوازن في الثقافة الإسلامية التوازن بين مصادر المعرفة في الإسلام . فهناك معرفة تأتي من وراء الغيب المحجوب، ومعرفة تأتي من صفحة الكون المشهود، أو بتعبير آخر: من الوحي الإلهي والنص القطعي، ومن إعمال العقل والحواس في الكون والحياة.

فالثقافة الإسلامية لم تغفل أو تهمل مصدراً واحداً من مصادر المعرفة، فقد أعطت كل وسيلة اعتبارها، ووضعتها في المكان والدرجة التي تليق بها في دقة وتوازن .

فالإسلام يعتبر الوحي هو المصدر الصادق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يخضع للهوى، فهو أعلى المصادر، ولكنه في الوقت ذاته لا يلغي العقل ولا يلغي المؤثرات والمعارف التي تتلقاها الكينونة الإنسانية كلها مما حولها في الكون.. فالكون كذلك كتاب الله المفتوح يوحي بالمعرفة للإنسان إذا استعمل عقله وحواسه في إدراك علومه، مع فارق واحد بين المعرفة التي تأتي عن طريق الوحي، وبين المعرفة التي يكتسبها الإنسان: هو أن المعرفة التي يتلقاها الإنسان بمداركه من هذا الكون

قابلة للخطأ والصواب لأنها من عمل الإنسان، أما ما يتلقاه من الوحي فهو الحق اليقين .

لقد وجه الله تعالى الإنسان إلى التلقي والمعرفة من كتاب الكون المفتوح، ومن كتاب النفس المكنون، وعند تدبر هذه الآيات الكريمة تجد فيها دلالة واضحة على هذا التوجيه لإعمال العقل والنظر في ملكوت السموات والأرض والنفس، قال الله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠-٢١)، وقال ﷻ : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية: ١٧-٢١)، وقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ١٦٤).

هكذا تختلف مصادر المعرفة في الثقافة الإسلامية عن مصادرها في الثقافات الوضعية الأخرى التي اتخذت من الكون والحياة والمادة مصدراً وحيدا لها، ولا تتصور منهجاً تعرف به حقائق هذا الكون إلا هذا المصدر.

٤- المثالية والواقعية

فالإسلام الذي تنبثق منه هذه الثقافة هو دين للواقع وللحياة وللحركة والعمل دين تطابق تكاليفه فطرة الإنسان، بحيث تعمل جميع الطاقات الإنسانية عملها الذي خلقت من أجله، وفي الوقت ذاته يبلغ الإنسان أقصى كماله الإنساني المقدر له، عن طريق العمل والحركة، لا بكفها عن العمل، ولا بإهدار قيمتها وكبت دوافعها..

ومن ثم توافرت في الثقافة الإسلامية من المثل والقيم والآداب والسلوك والمعاني والمفاهيم ما يناسب واقع الحياة التي يعيش فيها الإنسان ويلائم فطرته وواقعه وحياته، ولهذا هي الثقافة الوحيدة القادرة على إسعاد البشرية كلها، ذلك لأنها تنبثق من الإسلام الذي ختم الله به رسالته، وأكمل به دينه، وأتم به نعمته على البشر، فلابد أن يكون فيها من عناصر البقاء والحفظ ما يجعلها باقية إلى قيام الساعة.

ومن هذه الخصائص التي انفردت بها الثقافة الإسلامية خاصية الجمع بين المثالية والواقعية في شكل محكم رائع.

فما هي المثالية والواقعية ؟ وكيف جمعت الثقافة الإسلامية بينهما ؟

المراد بالمثالية هو حرص الإسلام على إبلاغ الإنسان أعلى أفق ممكن من المستوى العالي الرفيع، في يسر وراحة وطمأنينة، كالشمس تراها عالية أمام العيون، لكنها تلتقي مع واقع الناس ومع أقل المخلوقات وأضعف الكائنات وأبسطها، تمد الجميع بما لديها

من خير وتشمله بالحرارة والنور، وهي محتفظة بسنائها وسموها ومكانتها ومكانها.

والثقافة الإسلامية تريد لأتباعها الكمال والمثل العليا دائماً، لكن هذا الكمال يطلب بأسبابه ويسعى إليه من بابه، ولذلك كان من الصعب فصل المثالية عن الواقعية في الإسلام، وإنما هما شرعة للبشر متكاملة تنير لهم سبل الخير وترسم لهم قواعد السلوك وقوانين المعاملات.

والواقعية لا تعني الرضا بالواقع أياً كان وضعه أو صورته، أو أن الإسلام يطوع مبادئه لتوافق الحياة على أي لون، أو لتساير الواقع على أي شكل، فالإسلام لم يأت لإشباع شهوات الناس وغرائزهم، أو ليوافق أوضاعهم المختلة، وتقاليدهم المعوجة، وإنما جاء لينشئ نظاماً خاصاً؛ يشرع ويقنن، ويحلل ويحرم. أما سائر الأنظمة الأخرى فهي تقوم على أساس أن البشر هم الذين يشرعون لأنفسهم بمعزل عن شرع الله ووحيه، وتوجيهه وأمره، فهما منهجان متناقضان، وكذلك لا تعني الواقعية الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس فقط، ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة، وإنما المراد بها مراعاة ظروف الإنسان وفطرته وحدود طاقته، وطبيعة تكوينه، وواقع حياته، وذلك من حيث:

- أنه مخلوق من مادة وروح، وللروح تطلعاتها، وللمادة مطالبها.

• أنه يعيش على الأرض، ويأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتناسل، ويحب ويكره، ويضح ويمرض.

• أنه ذكر وأنثى تختلف حاجات وميول كل منهما وطبيعته الجسمية.

• أنه فرد مستقل في نفسه، أو فرد مشترك مع غيره.

كل هذه الأمور - وكثير غيرها من طبائع البشر - راعاها الإسلام وكيف أحكامه الفرعية تبعاً لها حتى تنطلق مسيرة الحياة في توازن مستقر وشمول دائم، ولا تتعطل أو تتهدد مصالح العباد..

وفي ضوء ذلك التعريف لكل من المثالية والواقعية، جعل الإسلام حداً أدنى أو مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه، لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول، ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين، وقد شرع هذا المستوى على نحو يستطيع القيام به أقل الناس استعداداً لفعل الخير وابتعاداً عن الشر، وهذا المستوى يتكون من الفرائض الواجبة، والمحرمات المنهي عنها، والضرورات التي تراعيها الشريعة وتقدرها بقدرها.

وبجانب هذا المستوى الإلزامي الواجب بلوغه على كل مسلم وضعت الشريعة مستوى آخر أرفع منه وأوسع، ورغبت فيه الناس وحببت إليهم بلوغه.

وهذا المستوى العالي يشمل المندوبات وأنواع القربات التي ترغب الشريعة في القيام بها، ويشمل كذلك المكروهات التي ينبغي تنزه المسلم وابتعاده عنها، لكن الوصول إلى ذلك المثل أو المستوى الأعلى يحتاج إلى جهد ضخم لا يتيسر لكل الناس، بل هو رهين بمواهب خاصة، واستعداد خاص يتميز به القلة النادرة من الناس.

لذلك لا يفرض الإسلام هذا المثل الأعلى على الجميع فرضاً، ولا يلزمهم جميعاً به، بل يرسمه أمامهم، ثم يتركهم لطاقاتهم، ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (البقرة : ٢٨٦)، ويتقبل منهم ما يتقدمون به كل على قدر جهده ﴿ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ (الأنعام : ١٣٢).

إنه يدعوهم ويحبب إليهم الصعود والارتقاء إلى الكمال الإنساني، ولكنه يدعهم يتطوعون بذلك، ثم يثيبهم بقدر ما تطوعوا جزاءً في الآخرة، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (الكهف : ٤٩)، ولا يجبره أو يكلفه بما لا يقدر عليه، ومن الأمثلة على المستويين الأعلى والأدنى مايلي:

• يأمر الإسلام المسلمين بأداء خمس صلوات في اليوم والليلة، بحيث لا يقبل من المسلم أداء بعضها أو التقصير فيها، ثم يفتح أمامهم باب النوافل والمندوبات لأصحاب الهمم العالية التي تريد التسامي إلى المراتب العليا والتقرب من الملأ الأعلى، وفي الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا

تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ " صحيح البخاري - (ج ٢٠ / ص ١٥٨).

• فرض الإسلام على المسلمين صيام شهر واحد في العام لا يستثنى من ذلك إلا أصحاب الأعذار على أن يقضوه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥). لكن هناك طاقات أخرى تطيق أكثر من ذلك، لذا دعا الإسلام إلى التقرب إلى الله بمزيد من الصيام في غير شهر رمضان .

• فرض الإسلام أيضاً الزكاة، لكنه حبب معها الإنفاق في سبيل الله: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾ (البقرة : ٢٤٥) .

• كما أباح للناس أن يأخذوا بثأرهم، ولكنه حبب إليهم العفو ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٨)، ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الشورى : ٤٠).

• كما يبيح لهم الإستمتاع بطيبات الحياة، ولكنه يحبب لهم أن يتخففوا منها، ويرتفعوا عليها، ويتجهوا إلى نعيم الروح: ﴿ زُيِّنَ

لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أُؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران : ١٤ -١٥).

هكذا يفتح الإسلام باب التطوع، والارتقاء إلى المثالية، ولكن ليس على سبيل الإلزام وإنما على سبيل الإختيار. فذلك أبلغ في تربية النفس، وأدعى إلى تحقيق الغاية، لأن المتطوع يشعر بلذة عميقة في تطوعه، تعوضه عن المشقة التي يحتملها، وتحبب إليه الاستمرار، وفي التطوع لذة لا يستشعرها من يؤدي واجباً مفروضاً عليه، فتستجيب النفس بأقصى طاقاتها لأن الدافع له نابع من الذات.

من صور المثالية والواقعية في مبادئ الثقافة الإسلامية

أولاً: في العبادات نظراً لظروف الإنسان وكثرة أعبائه في الحياة وما يتطلبه ذلك من السعي لطلب المعيشة والضرب في الأرض لرعاية مصالحه وتدبير شئونه.. ونظراً لما يتعرض له الشخص في حياته من مرض وملل، ومن ظروف طارئة وسفر فإن الشريعة راعت في شئون العبادة ما يأتي:

أ- **قلة التكاليف:** لم تثقل على الناس بكثرة التكاليف، ولم تكلفهم رهقاً، فالله الرحيم بعباده يعلم أن في عباده ضعفاً، وأن وراءهم شغلاً لقوام حياتهم وتحصيل أرزاقهم، ومن ثم كلفهم

بعبادات محدودة لا تستغرق كل الوقت، ولم يطلب منهم الانقطاع للعبادة كالرهبنة المسيحية حتى لا يؤثر ذلك على سير المصالح وتكاليف الحياة.

وفي الوقت نفسه لم تجعل الشريعة ارتباط الإنسان بالعبادة ارتباطاً خفيفاً حتى لا يتبلد حسه، ولا تهبط روحه، وإنما شرعت له من العبادات ما يكفي لتهذيب خلقه، وسمو روحه وسلوكه، بحيث يكون دائم الاتصال بالله رب العالمين، فجعلت له عبادة يومية تؤدي خمس مرات كل يوم، وتتوزع بين أجزاء النهار والليل، وجعلت عبادة سنوية كالصوم والزكاة، وعبادة في العمر كالحج .

ومع قلة التكاليف يسر في الأداء كذلك، فالصلوات الخمس مثلاً لا تستغرق الساعة من يوم طوله أربع وعشرون ساعة، والصوم شهر واحد من سنة طولها اثنا عشر شهراً، ثم إن وقت الإمساك عن الطعام والشراب والجماع هو النهار فقط، أما الليل فللإنسان أن يتمتع فيه بكل حلال مباح، والحج مرة واحدة للقادر عليه فقط، والزكاة كذلك مرة واحدة في العام على الغنى الذي ملك النصاب وحال عليه الحول.

وإذا كانت تلك إشارة موجزة إلى الفرائض، فالنوافل والقربات واسعة لمن أراد أن يترقى في ميدان الأعمال الصالحة. ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ (البقرة : ١٨٤).

ب- **التنويع والتلوين:** عرف الإسلام طبيعة المَلل في الإنسان، فغاير بين أنواع العبادات وأشكالها، ما بين عبادة بدنية

كالصلاة والصيام، وأخرى مالية كالزكاة والصدقات وثالثة جامعة بينهما كالحج والعمرة، حتى لا يسأم الإنسان من عبادة واحدة رتيبة لا تتغير[٣٤].

جـ- الرخص والتخفيفات: كما أباحت الشريعة الرخص والتخفيفات في العبادة، وذلك حين تعرض للإنسان ظروف تقعده عن أداء العبادة في صورتها الكاملة، و ذلك كظروف المرض والسفر ونحوهما، وبتتبع مواطن هذا التخفيف في الشريعة تجد من مظاهره الآتي:

- تخفيف بالإسقاط: كإسقاط الحج والصوم والجهاد ونحوهما من العبادات بأعذار مفصلة في كتب الفقه الإسلامي.
- تخفيف بالتنقيص: مثل قصر صلاة المسافر.
- تخفيف بالإبدال: كإبدال الوضوء والغسل بالتيمم عند فقد الماء، أو المرض.
- تخفيف بالتقديم والتأخير: كتقديم صلاة العصر إلى وقت الظهر، وكتأخير صلاة المغرب إلى وقت العشاء عند حصول الأسباب لذلك.
- تخفيف بالتغيير: وذلك كتغيير هيئة الصلاة المعروفة وقت خوض المعركة، والمعروفة في الفقه بصلاة الخوف.

هذه بعض مظاهر اليسر والسماحة للشريعة في العبادات، ومراعاتها لواقع الإنسان وما يعتريه من ظروف، لكن لا يعنى

التخفيف في الإسلام أن هذا الدين لا يعود أتباعه إلا على السهل الخفيف دائماً، فيقتل في نفوسهم روح المثابرة والإقدام، ويعودهم على المستويات الدنيا فقط، فالإسلام يأخذ أتباعه بالتكاليف التي تبني الفضائل، وتصعد إلى الكمال وتتيح للخصائص العليا في الإنسان أن تنطلق، إنه يأخذهم بالشجاعة في ميدان القتال، والشهامة والمروءة في باب المعاملة، والمنافسة في ميدان العبادة، والتهذيب في ميدان الأخلاق.

لكن علم الله بضعف الإنسان وعجزه في كثير من المواطن- يراعي هذه الظروف، ويشرع ما يناسبها خفة وتيسيراً على الناس، وهو من باب تقدير الظروف ومراعاة الأحوال، ومع ذلك فهو يعلق أنظارهم إلى الأفضل فيقول: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٤).

هكذا تعني المثالية والواقعية في الثقافة الإسلامية مطابقة منهج الإسلام لواقع الإنسان وظروفه الحقيقية المحيطة به في هذا الكون، فكلاهما – المنهج والإنسان – صادر عن الله ﷻ ، الإنسان خلق الله، والمنهج شرعُ الله ولا يمكن أن يتناقض شرع الله مع واقع خلق الله.

هكذا يكشف الإسلام حقيقة النفس الإنسانية، فإنه لا يجانب الواقع الذي يعيشه الإنسان، بل يحشد له كل التقدير وأرقى مراتب الإكرام والاحترام، ولا يحتقر دوره الإيجابي في الأرض، ولا يهدر قيمته في أية صورة من صور حياته، ولا يهمل دوافعه الفطرية

فالإنسان في التصور الإسلامي هو هذا الكائن الذي يدب على هذه الأرض بفرديته وجماعيته العميقة كذلك، بحوافزه الجماعية التي لا بد أن تراعى وتلبي .. بكينونته هذه المزدوجة الممتزجة المتنوعة الطاقات والاستعدادات؛ الجسمية والعقلية والروحية التي لا تنفصل عنه، والتي لا بد أن تراعى وتلبي[٣٥].

ولذلك فإن هذا المنهج الذي رسمه الله للحياة على ما فيه من سمو وارتقاء ومثالية هو في الوقت نفسه متوافق تماماً مع طاقات الإنسان الواقعية، ملتحم مع فطرته البشرية ونظام حياته، لأنه تشريع العليم الذي لا يجهل، والحليم الذي لا يعجل، والحي الذي لا يموت، والخبير بشئون النفس الإنسانية ودخائلها، ولا يغيب عنه سبحانه شيء من أحوالها وخفاياها، مهما دق أو صغر، أو غاب أو حضر، ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

والبشرية لن تجد الراحة والأمان، والسعادة الحقيقية والإستقرار إلا إذا إلتقت مع منهج ربها، كما تنزل على خاتم رسله ﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥-١٦)[٣٦].

هكذا تتحقق صفة "الواقعية" في الثقافة الإسلامية من خلال النظرة الشاملة لخصائص الثقافة عن الله والكون والحياة والإنسان، والتكامل بين العقيدة والمنهج الذي لا تفاوت فيه، فينطلق الإنسان بكل طاقاته، يعمّر في هذه الأرض ويطور في موجوداتها، ويبدع

في عالم المادة ما شاء الله له أن يبدع، لا يقف في وجهه إيمانه بالله تعالى، ولا يحجر عليه المنهج العملي الذي رسمته له الشريعة، فكلاهما "واقعي" مطابق لواقع الإنسان والظروف المحيطة به في هذا الكون، وكلاهما صادر من الجهة التي صدر عنها الإنسان، والتي زودته بطاقاته واستعداداته.

وبالتالي يستطيع الإنسان المؤمن بهذه الثقافة منهجا وسلوكا، أن يبدع ويخترع على أرض الواقع، ويحقق من الإنجازات المادية والعمرانية بنفس القدر الذي يحققه من الاستقامة والالتزام بقيم وأخلاق هذا الدين في تناسق وتوازن وشمول وإيجابية وواقعية، قال الله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٣٠).

٥-الإنسانية والعالمية

الإنسانية والعالمية كخاصية من خصائص الثقافة الإسلامية تعني أن الإنسان له مكانة عظيمة في هذا الدين. وعقائد الإسلام وأحكامه وأهدافه إنما جاءت لإسعاده والعناية به وبحقوقه، بطرق مباشرة تظهر لعامة الناس، وغير مباشرة يدركها العارفون منهم.

ونظرة الإسلام في تكاملها وتناسقها وشمولها لكل جوانب النفس وكل جوانب الحياة غير مسبوقة من الوجهة التاريخية، وما تزال حتى اليوم بعد كل ما ظهر من النظريات تنفرد وحدها بالشمول والعمق والاتزان[٣٧].

قد يتبادر إلى قصار النظر أن هناك تناقضا في هذه الخصائص: بين القول بأنها ربانية، وبين القول بأنها إنسانية، ومصدر الخطأ في قصور هذا النظر هو أن الله والإنسان كأنهما ندان متقابلان، وفي الحقيقة أن الله تعالى هو صاحب الكون وربه ومدبره ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٦٤)، والإنسان مخلوق حادث من مخلوقات الله تعالى، ولا يتصور أن يكون مخلوقا ندا للخالق، ولا الحادث يضاهي الأزلي. فالإنسان مخلوق ولكنه أكرم المخلوقات ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٠)، وله دور وشأن في هذا الوجود، والذي منحه ذلك هو الله الذي خلقه، ونفخ فيه من روحه وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان : ٢٠) ، وجعله خليفة في الأرض ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : ٣٠).

وبالتالي فإن المعاني الربانية هي التي توجه المسلم إلى الذي خلقه وسواه، والربانية هي المصدر التي يستقي منها المسلم سعادته وكرامته وصلاحه في الدنيا وفوزه بالنعيم المقيم في الآخرة، فإذا تدبر الإنسان آيات وموضوعات واهتمامات المصدر الأول لهذه الثقافة وهو القرآن الكريم فسيجده كتاب الإنسان، فكله حديث إليه أو عنه[٣٨]، ورسول الله محمد ﷺ الذي تجسد فيه الإسلام وجعله أسوة

حسنة لمن آمن بالله واليوم الآخر كان إنسانا والقرآن الكريم يحرص على تأكيد إنسانيته بقوله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (الكهف: ١١٠).

وقد بين القرآن الكريم حقيقة الإنسان على أنه مخلوق خاص لمهمة خاصة ذو كيان متميز تميزه عناصر تكوينه ومزود بخصائص منها :

- الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة، والجاهزية لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته.

- ومن خصائصه أنه كائن كريم على الله، ذو مركز عظيم في تصميم الوجود - على الرغم مما في طبيعته من الضعف والخطأ والقصور - ولاستعداده لحمل أمانة الاهتداء استحق تكريم الله له بإرسال الرسل وإنزال الكتب إليه .

- ومن خصائصه أنه يتعامل مع الكون كله بمن فيه وما فيه، وهو يتعامل مع ربه ومع من حوله من الموجودات والكائنات، ومع نفسه ومع الأحياء الكونية ومع طاقات الكون الظاهرة والخفية، وهو مهيأ للتعامل مع كل ذلك بما ركب فيه من روح وعقل وحواس وقوى وطاقات تناسب ازدواج عناصر تكوينه.

- ومن خصائصه استعداده - حسب تكوينه الذاتي - لأن يرتفع إلى مراتب الملائكة المقربين، أو ينحط إلى أدني من دركات الحيوان البهيم، وذلك حسب ما يبذله من جهد في تزكية نفسه أو إهمالها وحسبما يتلقى من عون وهداية ورعاية من الله، بسبب ما يبذله من جهد ورغبة في الارتباط بالله والاستقامة على منهجـه[٣٩].

فالثقافات والمناهج والأفكار التي ابتعدت عن منهج الله تعالى واتخذت آلهة أخرى من دون الله قد وقعت في اختلالات وشطحات مزقت فيها التوفيق بين الموافقات الكائنة في الفطرة الإنسانية، وفقدت التوازن بين مطالب النفس والحياة ونظام الكون، ونظرت إلى هذه الأشياء على أنها مجموعة من المتناقضات التي لا يمكن الجمع بينها، وعلى الإنسان أن يأخذ مكانه على أحد الطرفين المتناقضين، ويترتب على الطرف الذي يأخذه موقفه من قضايا الوجود كلها، وهناك اختلالات كثيرة وقعت فيها تلك الثقافات نتيجة هذه الرؤية لكنها في جملتها راجعة إلى اختلالات أربعة كبرى شكلت فكر تلك الثقافات، وانعكست على سلوكها وأخلاقها وهي:

الاختلال الأول العجز عن التوفيق والتوازن بين فاعلية قدرة الله وفاعلية الإنسان، فذهبت بعض الثقافات إلى القول بفاعلية قدرة الله المطلقة على حساب فاعلية الإنسان، والإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئا فهو السلبية الكاملة إزاء الإيجابية المطلقة.

ولا شك أن فاعلية قدرة الله حقيقة أزلية لا يصح إيمان، ولا تسلم عقيدة، ولا يستقيم فكر دون التسليم بها، وإنكارها شرك، ولكن الإيمان بفاعلية قدرة الله تعالى لا يقتضي بالضرورة الإيمان بسلبية الإنسان، ولا تناقض بين الأمرين فالله جعل للإنسان قدرا من الفاعلية يختار به بين الهدى أو الضلال، ويكون محاسبا على اختياره يوم الحساب، قال الله تعالى:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٧-١٠)، وانطلق المسلمون بهذا التوازن يؤمنون بفاعلية الإنسان في الأرض، ويؤمنون في الوقت ذاته بأن الأمر كله لله، فيضربون في الأرض ويأكلون من رزق الله، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥).

ومن هذا التوازن في الاعتقاد تحقق التوازن في واقع الإنسان، فخرجت حضارة تعمل بأقصى طاقتها وفاعليتها في تعمير الأرض، في وقت عجزت الثقافات الأخرى عن هذا التوازن فهي بين مؤمنة بفاعلية قدرة الله على حساب فاعلية الإنسان فوقف فكرها هذا عائقا لأصحابها عن التقدم العلمي فعاشوا في الضلال والجهل، وبين إيمان بفاعلية الإنسان ونبذ الإيمان بقدر الله تعالى، فنشأت ثقافة وحضارة واسعة الأطراف لكنها كافرة جاحدة بالله تعالى، فكان موقع الخلل هو الإنسان عندما اتخذ نفسه ندا لله تعالى واتخذ إلهه هواه، ﴿ وَجَعَلُواْ للّه أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (إبراهيم : ٣٠). ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى

عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية : ٢٣).

ونتيجة للاختلال الأول ظهر **الاختلال الثاني** وهو العجز عن التوفيق بين الدنيا والآخرة، وبين المادي والروحي في كيان الإنسان.

آمنت بعض الثقافات وأصحاب الرسالات المحرفة بالآخرة على حساب الدنيا، ونشأ عن ذلك الرهبنة المقيتة ذات البدع والضلال، وإهمال الحياة، والإيمان بالجانب الروحي من الإنسان على حساب الجانب المادي، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (الحديد : ٢٧). وانغمست طائفة أخرى في حب الدنيا وإهمال الآخرة وحرصوا على الحياة أشد الحرص: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ٩٦).

واهتدى المسلم إلى ذلك التوازن الجميل بين الدنيا والدين بين الاهتمام بمطالب الجسد والاهتمام بمطالب الروح والعقل، فنشأت الثقافة والحضارة المتوازنة في الإسلام.

وقد عجزت تلك الثقافات كذلك عن التوازن بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فوقعت في **الخلل الثالث**، في فترة كانت هناك طائفة تؤمن بعالم الغيب على حساب عالم الشهادة والإدراك الحسي، وطائفة أخرى علقت أذهانها بعالم الشهادة ولا تؤمن إلا بما يقع

تحت إدراكها الحسي، وأدت الاكتشافات العلمية العصرية وخاصة كشف قانون السببية إلى انقلاب كامل في أغلب الثقافات الوضعية حيث اندفعت في هذا الطريق ونسيت مسبب الأسباب، وأصبح عالم الغيب في نظرهم معوقا للبحث العلمي، ومفسداً لروح البحث، ولا يتمسك به إلا السذج الذين لم يرتقوا إلى اتخاذ روح البحث هاديا لهم، فنشأت عن ذلك حركة علمية ضخمة لكنها كافرة بالله لعجزها عن التوفيق بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فإذا ذكر الله تعالى في البحث العلمي سقط البحث والباحث من أعين العلماء وصاروا يتندرون بجهله وعدم علميته وموضوعيته وتعلقه بالغيبيات، وإذا ذكر الطبيعة والقوانين المادية رفعوه بذكرها. وصدق الله العظيم ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٥).

ولا شك أن الرسالات السماوية تركز على الإيمان بالغيب، وذلك نتيجة لما ركب في الفطرة الإنسانية من حب متاع الدنيا وشهواتها، ولكن الإيمان بالغيب لا يمنع من الإيمان بعالم الشهادة والانطلاق فيه بنشاط وحيوية، فالثقافة الإسلامية وجهت الإنسان إلى عمارة الأرض والمشي في مناكبها، وابتغاء فضل الله من البر والبحر، وإعداد القوة، والاجتهاد فيما يستجد من أمور الناس، وكل ذلك وغيره عمل دائب في عالم الشهادة.

كما نبه الإسلام المسلمين إلى تدبر السنن الإلهية التي تجري بها أحداث الكون المادي، وأحداث الحياة البشرية، وهذه السنن في

الحقيقة هي همزة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فالله يدبر أمر الكون وحياة البشر من عالم الغيب، يدبرها وفق نظام وسنن ثبتها الله تعالى ليرتبوا حياتهم بمقتضاها، فصارت قلوبهم موصولة بعالم الغيب ونشاطهم الفكري والعملي منطلق من عالم الشهادة في توازن دقيق وعجيب.

والخلل الرابع الذي وقعت فيه الثقافات والأفكار الوضعية عدم التوازن بين الثابت والمتغير، فجاءت فترة آمنت فيها طائفة من الناس بالثبات في كل شيء الله والكون والحياة والإنسان، كل شيء ثابت لا يتغير، فالأغنياء أغنياء والفقراء فقراء أبد الدهر يذهب الأفراد ويجيئون والأوضاع لا تتغير لأنها جزء من قدر الله الثابت، حتى جاءت نظرية دارون وقلب ذلك الفكر وتلك المعرفة، فبعد أن كان الثابت هو الصورة الدائمة أصبح التطور هو الصورة الدائمة للأشياء، ولم يعد هناك شيء ثابت على الإطلاق لا الكون ولا الإنسان ولا الدين ولا الأخلاق، ولم يستطع هذا الفكر أن يهتدي إلى التوازن الدقيق الذي هدى الإسلام إليه المسلمين فكونت فيهم ثقافة التوازن والاعتدال(٤٠).

ومن ثمرات الإنسانية في الثقافة الإسلامية

الإخاء والمساواة والحرية، فخاصة الإنسانية في الثقافة الإسلامية هي أساس لمبدأ الأخوة البشرية التي نادى بها الإسلام، وهي أساس المساواة الإنسانية العامة ومبدأ الحرية التي قررها الإسلام، فقد أكد الإسلام على هذه المبادئ الإنسانية الثلاثة، ووضع

لها الضوابط العملية لتطبيقها وربطها بالعقيدة والعبادة والآداب ربطا حكيما، بحيث لا تكون مجرد أمنية أو فكرة مثالية خارج نطاق الواقع(٤١).

ومبدأ المساواة أساسه أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه لإنسانيته دون اعتبار لسلالة أو لون أو عنصر مسقطا كل أنواع التفرقة والتباين بين الجنس البشري، وهذا من ثمرات الإنسانية في الثقافة الإسلامية، فلا فرق بين أبيض ولا أسود، ولا عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما قال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

نعم يختلف الناس في أجناسهم وعناصرهم وأنسابهم وأحسابهم ويتفاوتون في أعمالهم ومناصبهم وثرواتهم، ولكن هذا الاختلاف أو التفاوت لا يجعل لأحدهم قيمة إنسانية أكبر من قيمة الآخر بحسب هذا التفاوت، فقيمة الإنسانية واحدة للجميع، ومادام الكل إنسانا فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد،عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى) مسند أحمد - (ج ٤٧ / ص ٤٧٨).

ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على نفس أي إنسان اعتداءا على الإنسانية كلها، وإنقاذ نفس إنقاذا للجميع فهذا ما قرره الإسلام

بوضوح فقال: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ (المائدة : ٣٢) (٤٢).

وأكد الإسلام مبدأ المساواة عمليا بجملة من التعاليم، ويتمثل ذلك في العبادات والأركان العملية التي فرضها الله تعالى على الناس كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وكذلك المساواة العملية أمام الأحكام الشرعية، فالحلال حلال للجميع والحرام حرام على الجميع، والفرائض لازمة على الجميع، والعقوبات مفروضة على الجميع، وقد قطع الرسول ﷺ كل المحاولات التي تطلب استثناءات، وقال كلمته التي خلدها التاريخ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) صحيح البخاري - (ج ١١ / ص ٢٩٤)

ومن ثمرات الإنسانية في الثقافة الإسلامية تأكيد الإسلام على كرامة الإنسان وحرمة دمه وماله وصيانة عرضه، حتى إن النبي ﷺ أعلن ذلك في حجة الوداع حين خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ، أمام أعظم حشد من البشر، فقال ﷺ مقرراً حقوق الإنسان قبل أربعة عشر قرناً: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ

حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فَأَعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) صحيح البخاري - (ج ٦ / ص ٢٢٦).

بل إن الإسلام لم يكتف بحماية حق الإنسان وحفظه في حياته، بل حتى بعد مماته، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا) سنن أبي داود - (ج ٩ / ص ٣) وهذا مخالف لما عليه الثقافات والقوانين الأرضية التي عنيت إلى حد الإفراط بجوانب من حياة الإنسان، وسمحت له أن يدمر نفسه في جوانب أخرى.

ومن ثمرات الإنسانية في الثقافة الإسلامية تسخير الكون لخدمته، فقد كرم الله تعالى الإنسان وسخر الكون كله في خدمته، كرامة من الله له ونعمة منه عليه، لكي يسعد في الدنيا، ويستعين بها على عبادة ربه، قال الله ﷻ مخاطباً الإنسانية كلها:﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٢-٣٤)، وقال ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (لقمان : ٢٠).

ومن ثمرات الإنسانية في الثقافة الإسلامية إلغاء الوساطات والحواجز بين الله والإنسان في شريعة الإسلام ، فإنه متى أراد أن يدعو ربه ليغفر ذنبه ويقضي ويسد حاجته، ما عليه إلا أن يتوجه بالتضرع والدعاء إلى الله تعالى مباشرة، فليس هناك حاجة إلى من يتوسط بينه وبين الله ﷻ ، كما هو الحال في بعض الثقافات الوضعية التي تجعل سعادة البشرية مرهونة بأفراد معينين، يكونون حاجزاً وحجاباً بينهم وبين ربهم ومولاهم سبحانه وتعالى، قال ﷻ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٦).

ومن ثمرات الإنسانية في الثقافة الإسلامية تلك الحقوق التي يلقي الله مسئوليتها على الأولاد، ففيها ما يدل على أن هذه الآداب والتوصيات لا تصدر من فكر إنسان وإنما هي تنزيل من حكيم حميد يعلم طوايا الأنفس وطبائعها، فليس من الممكن أن تصدر من فكر إنسان معرض لتأثير العواطف والعوارض الداخلية، ولو وُهب ما وُهب من الوعي والحكمة؛ فضلا عن أن تصدر من أمي لم يقرأ كتابا ولم يدرس أوضاع البشر. ومن هذا التوصيات البالغة حقوق الأبوين التي تمنح الأسرة في الإسلام القوة والمتانة، تضفي عليها السعادة والهناء، ولو ألقى إنسان اليوم نظرة إلى العالم المتحضر الذي أطغته المادة واستبدت به الشهوات واستحكمت فيه الأنانيات

فحلت وشائج الرحم وقطعت صلات القربى لم يجد لـــه علاجا إلا إرشاد القرآن، ولو ألقى أحد نظرة إلى أي مجتمع غربي وما يعانيه من القطيعة بين الآباء والأمهات من جهة وبين البنين والبنات من جهة أخرى، وبين مطلق ذوي القربى؛ لرأى أن المشكلة لا يمكن أن تحل بفلسفة بشرية، فالمكتبات الغربية زاخرة بفلسفات الاجتماع والأخلاق وعلم النفس ولكنها هل أغنت شيئا عن الإنسان التعيس الحائر هناك، أما إذا قرأت مثلا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا *

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٣- ٣٩).

لو قرأت وتدبرت في هذه الآيات لوجدت في ثناياها علاج كل مشكلة تنوء بها المجتمعات في زماننا حتى إنه ليخيل لك أن الآيات المذكورة أنزلت لعلاج مشاكل العصر خاصة لا سيما في المجتمعات التي تعاني من ضلال العقيدة وانحدار الأخلاق وطغيان المادة وغرور النفس والقطيعة بين الأقربين، ولو اجتمعت طاقات البشر الفكرية على إنتاج شيء من هذه الحلول لارتدت خاسئة ولجاءت بالداء من حيث تظن أنه الدواء فسبحان القائل : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (القلم: ٥٢) فنور القرآن لم يسطع ليقتبس منه شعب أو جيل دون آخر وإنما هو نور الله المبين الذي يسطع على جميع العالمين [٤٣].

ولقد دخلت في الإسلام شعوب ذات أصول عرقية متباينة، فما وجدوا إلا حرية وكرامة ومساواة كان من ثمراتها أن قدموا جميعاً عطاء ثرياً غزيراً نافعاً... لا تزال آثاره موثقة في أسماء العلماء والفقهاء والفلاسفة الذين تركوا بصمات واضحة بارزة في الثقافة الإسلامية .

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام التي هي مادة الثقافة الإسلامية تدعو إلى توفير المبادئ الإنسانية في مجالات العلاقات على الصعيد الفردي والجماعي والدولي، وتحذر من مغبة العنصرية البغيضة حتى تكون الأهداف الإنسانية التي من أبرزها تحقيق العبودية لله تعالى، هي الغاية التي يتطلع إليها الإنسان ويسعى نحوها ولعل أهم معاناة يعانيها الإنسان خارج دائرة الإسلام هي شعوره بالتمزق، وبأنه ليس شخصية واحدة تتجه نحو هدف واحد، فهو يرى أنه أشتات كل منها يرتبط بهدف لا علاقة له بالأهداف الأخرى، وبأنه أنفس عديدة لا نفس واحدة، وبأنه بعيد عن مصيره لا متوحد معه.

الهوامش

١. رواه الإمام على ، الحديث رقم ٣٣٩٤ – سنن الدارمي باب فضل من قرأ القرآن . جزء ١٠ ، ص ٢٠٧ .
٢. جواهر التفسير – سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي- ج١ ص ٥٢
٣. المرجع السابق ص ٦٥-٦٦ بتصرف
٤. أصول الحوار الثقافي وضوابطه في الفكر العربي والإسلامي – د. مبارك بن سيف الهاشمي
٥. المرجع السابق ص ١٣٦
٦. مجلة الأزهر، الجزء العاشر، القاهرة، شوال ١٣٧١هـ ، المجلد ٢٣ ، ص٤٧
٧. المرجع السابق.
٨. أصول الحوار الثقافي وضوابطه في الفكر العربي والإسلامي – د. مبارك بن سيف الهاشمي
٩. جذور التفكير الحواري وصوره في الثقافة العربية. د. مبارك ابن سيف الهاشمي ص ٣٢ ومابعدها
١٠. الحديث النبوي: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة
الحديث القدسي: ما نقل عن النبي ﷺ مع إسناده إياه إلى ربه ﷻ .

١١. الحديث الصحيح هو: ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتاه من غير شذوذ ولا علة.

الحديث الحسن هو: ما اتصل سنده بنقل العدل الذي خف ضبطه عن مثله إلى منتاه من غير شذوذ ولا علة.

الحديث الضعيف هو: ما لم يجمع صفة الحسن بفقد شرط من شروطه

١٢. الحديث الموصول هو: ما اتصل سنده إلى النبي ﷺ.

الحديث المقطوع هو: ما أضيف إلى التابعي أو دونه من قول أو فعل.

الحديث المرفوع هو: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

الحديث المرسل هو: ما سقط من آخر اسناده من بعد التابعي.

الحديث الموقوف هو: ما أضيف إلى الصحابي من قول أو فعل أو تقرير.

١٣. إلهية المصدر -(الوحي - القرآن - السنة الشريفة) الدكتور أبو بكر صديق - ص ٦٠ وما بعدها بتصرف.

١٤. علم مصطلح الحديث هو: علم بأصول وقواعد يعرف بها أحوال السند والمتن من حيث القبول والرد.

علم الجرح والتعديل هو: علم يبحث في الرواة من حيث العدالة والضبط أو الطعن في عدالتهم وضبطهم.

١٥. الاجتهاد في الشريعة الإسلامية - د. يوسف القرضاوي

١٦. الرَّحا عند الفرَّاء يكتُبها بالياء وبالألف لأنه يقال رَحَوْت بالرَّحا ورَحَيْتُ بها ابن سيده الرَّحَى الحَجَر العظيم أُنثى والرَّحَى معروفة التي يُطْحَنُ بها والجمع أَرْحٍ وأَرْحاءٌ ورُحِيٌّ ورِحِيٌّ: لسان العرب - (ج ١٤ / ص ٣١٢)

١٧. الاجتهاد السياسي: تقاطعات المدني والفقهي - د. فوزي خليل

١٨. الشوكاني: أبو عبد الله محمد بن على اليمني الشوكاني ، توفى ١٢٥٠ هـ : ارشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول.

١٩. نور الدين السالمي- طلعة الشمس — ج٢ ص ٢٧٤

٢٠. د. فوزي خليل - الاجتهاد السياسي: بتصرف

٢١. سرحان بن خميس - الاجتهاد المعاصر ضرورة و مفهوم

٢٢. المرجع السابق.

٢٣. زكي الميلاد - الاجتهاد وبناء المعاصرة في الفكر الإسلامي.

٢٤. د/ يوسف القرضاوي - مدخل لمعرفة الإسلام - صفحة ١٣٨

٢٥. سيد قطب - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- ص٤٦.

٢٦. د. مبارك بن سيف الهاشمي وعبد المنعم العمري - حقوق الإنسان في الإسلام.

٢٧. د/ يوسف القرضاوي - مدخل لمعرفة الإسلام - صفحة ١٣٤

٢٨. سيد قطب - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- ص٧٢

٢٩. د يوسف القرضاوي - مدخل لمعرفة الإسلام - ص ١٨٤ وما بعدها بتصرف

٣٠. سيد قطب - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص٩١

٣١. هذا عكس ما يوجد في الثقافات والأديان التي فقدت خاصية التوازن فهناك من ألغى جانب العبادة والتنسك من واجباته، كالبوذية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده، وهنا من الأديان من طلب من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج، كالرهبانية المسيحية.

٣٢. د. يوسف القرضاوي – مدخل لمعرفة الإسلام ص ١٦٤ وما بعدها بتصرف

٣٣. د. مبارك بن سيف الهاشمي وعبد المنعم العمري – حقوق الإنسان في الإسلام – صفحة ٣٦ . وراجع في هذا الكتاب حقوق الإنسان في الإسلام.

٣٤. الإمام نور الدين السالمي – تلقين الصبيان

٣٥. د. مبارك الهاشمي – إصلاح المجتمع الإنساني ومكافحة الفساد.

٣٦. الدكتور جمعة علي الخولى – المثالية والواقعية في الإسلام.

٣٧. محمد قطب – الإنسان بين المادية والإسلام – ص٦٩

٣٨. د– إبراهيم بن أحمد الكندي – الإنسان بين الفرقان والميزان دار البيان.

٣٩. د. مبارك الهاشمي – إصلاح المجتمع الإنساني ومكافحة الفساد.

٤٠. محمد قطب – رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر– ص ٢١٣ – ٢٢٣ باختصار وتصرف

٤١. د. مبارك بن سيف الهاشمي وعبد المنعم العمري – حقوق الإنسان في الإسلام ص٧١
٤٢. د. سعيد الصوافي – الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم – الفصل الرابع ص ١٢٤
٤٣. سماحة أحمد بن حمد الخليلي – جواهر التفسير

المراجع

١- - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي- تفسير ابن كثير- دار طيبة للنشر والتوزيع- الطبعة الثانية ١٩٩٩م

٢- الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي دراسات في علوم القرآن -/http://library.thinkquest.org

٣- سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي - جواهر التفسير -- الطبعة الأولى ١٩٨٤ مطبعة الألوان الحديثة - الناشر مكتبة الاستقامة.

٤- مجلة الأزهر، الجزء العاشر، القاهرة، شوال ١٣٧١هـ ، المجلد ٢٣.

٥- الدكتور مبارك بن سيف الهاشمي - أصول الحوار الثقافي وضوابطه في الفكر العربي والإسلامي.

- جذور التفكير الحواري وصوره في الثقافة العربية.

- حقوق الإنسان في الإسلام- مكتبة الفلاح الطبعة الأولى ٢٠٠٦م

- إصلاح المجتمع الإنساني ومكافحة الفساد - بحث منشور في كتاب خصائص الإسلام العامة

٦- الدكتور أبو بكر صديق - إلهية المصدر -(الوحي - القرآن - السنة الشريفة) بحث نشر في كتاب خصائص الإسلام

العامة - الجزء الأول - للمؤتمر العالمي الحادي عشر للوحدة الإسلامية - طهران

٧- الدكتور يوسف القرضاوي- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية -http://www.qaradawi.net/site/topics/static.

مدخل لمعرفة الإسلام - مكتبة وهبة الطبعة الأولى - ١٩٩٦م

٨- الدكتور فوزي خليل - الاجتهاد السياسي: تقاطعات المدني والفقهي- http://www.islamonline.net/arabic/mafaheem/2005/02/article

٩- نور الدين السالمي - طلعة الشمس

- تلقين الصبيان

١٠- الأستاذ الدكتور إبراهيم بن أحمد بن سليمان الكندي - الحكم الشرعي في الميزان النصي - دار قتيبة - الطبعة الأولى ٢٠٠٠م

- الإنسان بين الفرقان والميزان- دار البيان - الطبعة الأولى ١٩٩٦م

١١- سرحان بن خميس - الاجتهاد المعاصر ضرورة و مفهوم http://www.chihab.net/modules

١٢- زكي الميلاد - الاجتهاد وبناء المعاصرة في الفكر الإسلامي - المؤتمر الدولي الخامس عشر للوحدة الإسلامية. الأصالة والمعاصرة في فقه المذاهب الإسلامية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسـلامية - طهران (١٥-١٧) ربيع الأول ١٤٢٣هـ

١٣- سيد قطب - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- دار الشروق الطبعة العاشرة ١٩٨٨م

١٤- الدكتور جمعة علي الخولي- المثالية والواقعية في الإسلام. http://www.iu.edu.sa/Magazine/44/9.htm

١٥- محمد قطب - الإنسان بين المادية والإسلام - دار الشروق - طبعة ١٢ /١٩٩٧م

- رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر- مكتبة السنة - الطبعة الأولى ١٩٩١م

١٦- الدكتور سعيد الصوافي - الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم.